obeikandl.com

السّاعر

obeikandl.com

محمّد جزبوعة

السّاعر

رواية شعريّة

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل

(الساعر) .. أي (السائح الشاعر) ..في رحلة للبحث عن صبيةٍ تربّت مع الشاعر في قبيلته ، طفلين.. كانتْ أجمل ما رأى حينها وما رأى بعدها إذ شب.. لكنها اختفت .. لتصير حكاية الجدات لأحفادهنّ:(من عشرين سنة...كانت ..ثم لا أثر..). بعد عشرين سنة يخرج الشاعر باحثا عنها ، طاويا الوهاد والنجود يظلله خيال عينيها ..وتدفعه ريح الشوق إليها..

هي رحلة الصحراء بكل ما فيها من روعة الغروب وتنفس الفجر على المدى الممتد ، ومن ثغاء القطعان عائدة مساء ، ومن قمر الليل يعبر على الخيام هادئا ..ومن أباريق الشاي على الجمر ..ومن همس الهندات على نبع الماء..

رملٌ، وناقة شاعرٍ يترحّلُ
بين القبائلِ عن فتاةٍ يسألُ
ويقول عنها إنها جنيةٌ
تؤذي برمش عيونها أو تقتلُ
هو يدّعي أنّ الفتاة رهيبةٌ
ما مثلها من جنسها من تذهلُ
إن قيل (بدرٌ) لم يرُقْ لجنابها
أو قيل عنها ظبية ، لا تقبلُ
مهما تخيّلَ حسنَها متخيّلُ
هيَ منتهى ذاك الخيال، وأجملُ
وقد اختفتْ من خُمس قرنٍ طفلةً
وتضاربتْ أخبارها والمنزلُ
بعضٌ يقولُ تعيش عند قبيلةٍ
تعتاش من صوف الشياه وتغزلُ

والبعض يذكر أنها في أسرةٍ
تفتي وتحكم في الأمور..وتفصلُ
والبعض يحلفُ أنها في جامعٍ
في قرية محجوبةً تتبتّلُ
ولأنها كانتْ صبية حلمهِ
أو أنها الحبّ البريء الأولُ
حلف اليمين بأن يردّ غيابها
أو سوف يبقى هكذا يتجوّلُ.

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الأولى

يمدّ شيخُ القبيلة يده على عينيه متقيا الشمس مستجليا صورة الراكب الذي اقترب من خيمته.. وقد سبقت (الساعر) حكايته وتناقل الركبان شعره المجنون ، فتحاشاه الخائفون على القوارير..ورغم كرم القبيلة وشيخها، رغم ما عرفت به من قرى الضيوف ، إلا أنّ الخوف من شرّ الشعر قد هزّها فارتعشت لمرأى الساعر طالبة إليه المغادرة..

قال شيخ القبيلة :

كنّا الكرامَ على الزمان ولم نزلْ
والناس تضربُ في البلادِ بنا المثلْ
لكننا والحقُّ حقّ يا أخي
نخشى على غيد القبيلة فارتحلْ

أرواحهنّ ضعيفةٌ، إن فوجئتْ
بالشعر ذابتْ في الضلوع على عجلْ
فيعشنَ محروقات قلبٍ بالهوى
يخفين أسرارَ التوجّع في المقلْ
نخشى على من أكملت عشرينها
أن تشتكيك...إذا اشتكتكَ فما العملْ؟
وعلى مطلقةٍ تطلّ بعينها
فترى جنونكَ في القصائد يشتعلْ
وعلى عجائزَ سوف تذكرُ أمسها
فيضجّ فيها بعد عمرٍ ما أفلْ
وعلى الأميرة بنتنا ، لو أنها
سمعتك تقرأ بيت شِعر من غزلْ
ستشدّ من فرطِ التأثّر شَعرها
من دون خوفٍ من أبيها أو خجلْ

oberikandi.com

فاحزم متاعكَ ..لست ضيفا عندنا

وارحل جزاك اللّه عنّا يا رجلْ .

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثانية

سمعت (زينب) كلام والـدها ، شـيخ القبيلـة، وهـو يبدي خشـيته مـن استضـافة السـاعر، واسـتخفّتها العجلة من خلف الخباء، فخرجت دون برقعهـا،وفي عينيها كيد نسائي عظيم.

-1

خرجتْ إليه تقول: ((مهلا يا أبـي

رُحماكَ بالضيفِ الغريبِ المتعَبِ

أنا لست أنكرُ أنهُ متأنّقٌ

وكلامهُ (...)، تبّا له من مُطربِ

وعيونه وثنيةٌ ، وغرورهُ

جدا يناسبُه.. وهذا مذهبي

يا ويحَ مَن نظرت إليه وطوّلتْ
واستأمنتهُ بجهلها لم تهربِ
لفتَ انتباهي من مجرّد هزةٍ
في حاجبيهِ .. كهزة المتعجّبِ
أخشاه مثلكَ، قد أموت بسكتةٍ
قلبيةٍ لو قالَ لو بيتين بي
وأنا كما تدري أذوب بهمسةٍ
أو وردةٍ مشبوكة في مَنكِبِ
أخشاه مثلكَ يا أبي وعلامتي
ما سال فوق جبينيَ المتصبّبِ
لكنّ واجبَنا تجاه ضيوفنا
بذلُ الندى ، ولتلكَ عادةُ يعرُبِ
فامدد يمينك كي يحسّ بلطفنا
واضرب على كتف الغريب وطبطبِ

obeikandl.com

دع عنكَ هاجسك القديم وقل له :

(أهلا وسهلا ، قد وصلتَ).. ورحّبِ

أفرش له طرف العباءةِ وابتسمْ

في وجهه ،أحببت أم لم تُحببِ

فإذا انتشى وتلا القصائد في الدجى

فامنعهُ، قل (يا ضيف صلّ على النبي)

فإذا استمرّ بهمسه وجنونه

فاستلّ سيفكَ..إنه لمذوّبي

هي ليلةٌ ..قلبي الصغيرُ يمامةُ

و(اللّه يسترُ) من ذوات المخلبِ

ماذا يقول الناس ، يا ويلي أنا

إن لم نقم بالواجب المترتّب ؟

ولعلهُ يا والدي مستوحشٌ

أو جائعٌ، أو ظامئٌ لم يشربِ))

obeikandl.com

-2

الساعر:

ما كنتُ ما قالتْ ، وتعرف أنّني
في صرتي، زاد الطريقِ، ومشربي
لكنها أنثى ، وما الأنثى إذا
هي لم تزدْ في قولها أو تكذبِ
هي روحُ والدها وبؤبؤُ عينهِ
ووحيدةُ البيت الكريم الطيّبِ
تحكي بعينيها وتطلبُ ما اشتهتْ
بإشارة من رأسها إن تطلبِ
إن همّ بالأشياء يأخذ رأيها
ويقول لا للشيء إن لم ترغبِ
حناؤها في الكفّ تفضح ذوقها
حمراءُ كالشفق الذي في المغربِ

obeikandl.com

وعيونها بدويّةٌ في عمقها
سرّ كبيرٌ مثل سرّ المذنبِ
فلربما كانت تحبّ قصائدي
أو من أشدّ المعجبات الحور بي
مِن سرعة استعجالها لم تنتبه
نسيتْ غطاء الوجه، لم تتنقّبِ
فرأيتُ - يا سبحان من خلق الدوا-
ما يُذهب الأمراض عن متطببِ
وجها كقرص البدر، يَقتلُ حسنهُ
وتعيد نظرتها الشباب لأشيبِ
كان اسمُها - واللّه أعلم- (زينبٌ)
فعلا تجنّنُ ..يا لها من زينبِ
أنْست فؤادي من خرجتُ لأجلها
والأصلُ في المعروفِ حبّ الأقربِ

obeikandl.com

وعرفتُ عذرَ أبي الفتاة وخوفهِ
منيِ، وقد سامحتهُ في الأغلبِ.

obeikandl.com

الحلقة الثالثة

في فراشها ، كانت زينب تضع يدها على قلبها خوفا من أن يهتز الساعر بجنون الشعر فيمزّق صمت الليل بأبيات تترامى إليها أو إلى إحداهنّ فتشرخ كل مرشات عطرها.. كانت ساهرة تفكّر في جنونها..فللنساء حالات ..كما للشعراء حالات..

-1

باتتْ تحدّثُ قلبها..وتقولُ

في نفسها: يا قلبُ يا مهبولُ

هل حسب رأيكَ ما اقترفنا هيّنٌ؟

وهل الذي قمنا به مقبولُ ؟

كيف استطعتُ ضمانَ هذا المفتري؟

بالي علينا كلّنا مشغولُ

والآنَ ماذا لو يحرّكه الهوى
بقصيدتينِ؟ ومن هو المسؤولُ؟
ستشبّ نار الحبّ في خيماتنا
ويعيث فينا في الظلامِ الغولُ
أنا باعتقادي لا أمان لشاعرٍ
غدُ مَن تميلُ لقولهِ مجهولُ

-2

بينما كان هو في خيمة الضيوف يفكّر في جميلها وجمالها..

أدري بأنّ ظنونها لا تفتُرُ
وأظنّها بفِراشها تتحسّرُ
ندما تأوَّهُ، أو تعُضُّ مخدةً
وتشدّ مرود كحلها أو تَكْسِرُ

obeikandl.com

وتقلّب الجنبين تُبرد نارها
وتعود تذكرُ ربّها تستغفرُ
والليلُ يُسهرُ مَن تُحدّث شاعرا
في سرّها ، أومن له تتعطّرُ
أو مَن إذا جاء المساءُ تزيّنتْ
لشموعها ، وغيابِ مَن لا يحضرُ
تُلقي على رُسغ الأساور رأسها
وتروحُ تمسح دمعها وتفكّرُ
هي لنْ تكون أميرةً إنْ أغمضتْ
جفنا وجفّ بخدّها متحدّرُ
ستبيتُ تحسب في السماء نجومها
وتطلّ مِن شَقّ الخِباء وتنظرُ
ذاك الدليل بأنها مفتونةٌ
وبأنّها رغم التمنّع تشعرُ

-3

في لحظة الوداع .. وقفت أمام خبائها متسمّرة كناقف حنظل ..يسيل خدّاها بما تنكر عيناها.. ولا دخان خدين بلا نار عينين.. وكان يفكّ رباط حمله ويعقده ثم يعود لفكه مترددا ..لا يجد ما يقول ولا تجد..وبينهما معلقات من الصمت الفصيح..

في الحِمل يربطُ زادهُ ويتمتمُ
ويعُضُّ فكّيهِ كمن يتألمُ
وينيخ ناقتهُ ، وينظر حولهُ
مترددا ينوي الرحيل ويُحجمُ
ويقولُ : حقُّ البنتِ شُكرُ جميلها
أمّا الجمالُ فلا يفي فيه الفمُ
ماذا سأفعلُ؟ هل أودّعُها؟ وهل
أهدي لها ما لو رأتْ تتبسّمُ ؟

وبعُرْفِ هذا الحيِّ هل مِن مانعٍ
مِن أن أبوحَ؟..وهل يجوز أسلّمُ؟
إن كان والدُها (على نيّاته)
فأنا ومَن قد ضيّفتني نفهمُ
وبرغم هذا الصمت تعلمُ أنني(...)
وأنا برغم الصمت أيضا أعلمُ
أأشُدُّ بعض الفحمِ بين أصابعي
وأخطّ فوق خبائها ما أكتمُ ؟
وأقول تعجبني عيونُ صبيةٍ
أنا لن أسمّيها .. ولكنْ أرسمُ
نظْراتها همجيةٌ إن حاصرتْ
جيشا يبيع الأرض أو يستسلمُ
لستُ الذي يفشي خبايا ظبيةٍ
فأنا الذي لو متُّ لا أتكلّمُ

وقفتْ تعصّر كفّها في كفّها
فرسا تكادُ من الجنون تحمحمُ
ولعلها غضبا تُميّل حاجبا
وتضيّق العينين فيَّ وتشتمُ
لم تقترب أبدا ولا رفعت يدا
حالُ المودّعِ حينما قدْ يُغرَمُ
لم تنتبه للعاذلين تهامسوا
فعليه عيناها وليس عليهمُ
أنفاسها محروقةٌ مِن غيظها
ودمُ الصبيّةِ فائرٌ متسمّمُ

-4

بعينيها شيّعتهُ أميـالا .. وبعـد فـوات الأوان جهـرت بما قد عرفه فيها سرّا قبل ذلك.. صمْتُ المواويـل

obeikandi.com

أفصح من صوت النايات ..وللحـن بـذر يحملـه فـي الخريف إلى الربيع المقبل..

لا بدّ للأحمال من ترحالِ
وقضاءُ أهل الحبّ فَقْدُ الغالي
قدرُ المسافرُ أن يواصل سيرهُ
والبُعد مكتوب على الجوّالِ
غرستْ عيونا كالصقور وشيّعتْ
جَملا يميل بقامة الجمّالِ
يبستْ فلم يطرف لها رمش وهل
في الصخر تطرف أعين التمثالِ؟
حينَ استوى بالطيف طيف حبيبها
وتأكّدتْ موؤودة الآمالِ
أنّ الذي في القلب غادر حيّها
صرختْ: (ستبقى دائما في بالي)

الآنَ قد فهمتْ جميع دروسها
وتأكدت في كامل الأحوالِ
أن لا ورود تشقّ قلب صبيةٍ
إلا إذا انشقتْ على زلزالِ
رنت أساورُها وقد مدت يدا
.. حينَ اختفَوا، ما قيمة الأفعالِ ؟
فات الأوانُ.. ولن يرى منديلها
أو دمعَها المسكوب فوق (الشالِ)
لا تَنبُت الألحانُ بعد أوانها
لكنْ سيبقى البذر في الموّالِ

وطوت طيفه الصحراء الواسعة التي لا درب فيها غير ما يفضي إلى المجهول..بينما كان منديلها مسمّرا في الجوّ كراية استسلام لمدينة تعترف بسقوطها..

الحلقة الرابعة

اتخذ الساعر ديار زينب ظهريا ، وفي النفس شيء من زينب..
مشى إلى غير وجهة ، تدفعه الريح وأشواقه..
وبين نجد يرفعه ووهدة تنزل به ، يمضي نهاره ويستقبله ليله بما لليل في قلب الغريب من وَحشة.. لكنّ نارا تلوح له فيومض في قلبه برق أمل .. يؤمها مستأنسا ليصطلي وفي الفؤاد سؤال من لا صبر له: نار من هذه؟

سار الغريبُ..وليتهُ ما سارا
يطوي الصحارى هائما محتارا
تركَ التي لو عبّرتْ عن قلبها
لتشقّقتْ أضلاعُهُ وانهارا

فلأيّ أرضٍ سوف تَدفعُ قلبَهُ
ريحُ الفيافي طائعا مختارا ؟
وبأيّ حيٍّ سوفَ يُنزلُ رَحْلَهُ
وبأيّ رئمٍ سوف يُذكي النّارا ؟
أيعيش طول حياته متجوّلا
يهوى النساءَ ويكتبُ الأشعارا ؟
لاحتْ لهُ في الأفقِ نارٌ...كلّما
لاحت له النيران يبكي الدارا
رجَفَ الفؤادُ، أحسّه في صدره
عصفورَ شوقٍ فجأة قد طارا
فلعلّها دار التي خرجتْ به
ولأجل عينيها ارتضى الأسفارا
هو ليس يذكر كم مشى متوجّسا
ميلين نحو النار، أم أمتارا

obeikandl.com

لم تكن النار نار قبيلة أو حيّ، لا ، ولم يكـن قربهـا سوى متوسد ذراع أكله النحول .. لكأنه قـيس بـن الملوّح ..أو طيفه .. صامتا مذهولا باكيـا كمـا كـان منذ قرون..

ألقى السلامَ، وراح ينظر مُشفِقا
والدمع أغرقَ عينَه وترقرقا
مسحَ العيونَ كأنّ أمرا راعهُ
ودنا ورمّش مقلتيه ودقّقا
هذا هو المجنونُ قيسٌ، راقدٌ
فوق الرمال وقد توسّد مرفقا
جسمٌ نحيلٌ، والضلوع يهزّها
نفَسٌ ضعيفٌ كاد أن يتمزّقا

obeikandl.com

من عهد ليلى والدموع بخده
والشَّعر أشعثُ، والإزار تشقّقا
يجري ويلهثُ ، صيفَه وشتاءهُ
ليلا نهارا،سائلا متشوّقا
هو لم يمتْ..أو أنّ طيفَ جنونهِ
لا زال يطلبُ وصلها متعلّقا
هذا هو الحبّ الكبيرُ وحالهُ
إن قيلَ حِبّكَ في السماء تسلّقا
فكأنه أعطى لليلى عهْدَهُ
حلَفًا، وأقسمَ لا يخونُ الموثقا
مجنون ليلى والدموع بخدّه
رفع العيون إلى الغريب وحدّقا
نظرا لبعضهما فأطرقَ واحدٌ
والآخر العذريّ أيضا أطرقا

obeikandl.com

للصمتِ في حرمِ الجنون فنونهُ
هذان أستاذانِ في عِلم الشقا
باتا وجمرُ النار إن غفِلا انطفا
أو أطعماهُ بعود شيحٍ طقطقا
في الفجر حين الضوء لاحَ تيمّما
ركَعا ، فشفّا بالصلاة وأشرقا
قاما إلى زاديهما وتبادلا
عطريهما ، وتعطّرا وتنشّقا
صبّا على النار الضعيفة ركوةً
وتصافحا..وتعانقا، وتفرّقا
هذا إلى ليلاه سار مغرّبا
ومشى إلى ليلاه ذاكَ مُشَرِّقا

حينما صار قيس بن الملوّح نقطة بأفقٍ كثيب .. كانت ناقة الساعر تتمايل في الفراغ الواسع نحو

لاوجهة .. ولأنه لم يكن يعرف إلى أين يتجه كانت كل الدروب تؤدي إلى هناك..

obeikandl.com

الحلقة الخامسة

وكان يسمع بذلك قبل أن يحلّ بحيّها.. جميلة من جميلات العرب، تحكم قومها بسطوة سيفها وعينيها، ترغيبا وترهيبا ، وبرق السيف يفسد برق العيون ، رغم أن لعنترة في تذكير هذا بذاك رأيا ..وما كان للساعر أن يخطئه قدرُه الذي ساقه إلى مضارب تعيش في ظل امرأة صارمة ..ولعلها إذ سمعت بمقدمه تزيّنت وتعطّرت وغلبتها أنوثتها فرقّت أو تظاهرت ، وطلبته على استعجال فمثُل،ولعلها فكرت وهي تحدجه بنظرة ماكرة في أنّ ملكها البدويّ كله لا يساوي نسمة في ثوب أنثى يطرّزها شاعر في قصيد..فأرادت منه ما يزيدها عند قومها رفعة ، جاهلة أنّ القصائد

الجميلة لا تقال في ظل السيف ولا لفاقدات الرقة رغم جمالهن..

-1

نثرتْ له بعضَ الورودِ بكيدها
أتظنه طفلا يهيمُ بوردها ؟
ولربّما سقطَ النقابُ،فولولتْ
وهي التي قد أسقطتهُ بشَدّها
وضعتْ على فمها رقيقَ أصابعٍ
وتظاهرتْ بدموعها في خدّها
همستْ له : أفلا تراني فتنةً ؟
فأسرّها في نفسه ..لم يُبدِها
وهو الخبير بكيف ترمي ظبيةٌ
صيّادها بصدودها وبصدّها

أتظنّ أنّ القلبَ قطعةُ سكّرٍ
في أيّ فنجان تذوبُ لوحدها ؟
أو أنّ ذَوق المرء يسجد صاغرا
لصبية من عزّها أو مجدها ؟
أنا لستُ أنكر أنها جذّابةٌ
ممشوقةٌ كالخيزران بقدّها
والبدر يولد في ضفاف عيونها
والشمس تشرقُ ربّما من عندها
لكنّ غلظتَها أضاعت حُسنها
وخبَتْ أنوثةُ نارها مِن حِدّها
لو أنها اهتمّتْ بشكّ ثيابها
بالخرز، أو جمع الفصوص وعدّها
أو حفظِ شعري كي تسلّيَ نفسها
عند اشتداد جنونها أو وَجْدها

obeikandl.com

لتشرّفت بقصيدةٍ، ولربما
ملكتْ فؤادي كلّهُ من بعدها

كان في نفسها منه شيء ، لعله الغضب أو الإكبار أو حقد على مغرور يكسر سطوتها ويفضح هشاشة القلب المصفّح..لذلك لم تقتنع بأعذاره وتهربه من أن يزيّن ثوبها الملكيّ ببعض الشعر..وطلبته لخيمة حكمها ثانية ، وألحّت..
بينه وبين نفسه هو لا ينكر جمالها ..لكنّ الجمال يفقد روحه حينما يتحول من زهرة إلى صخرة..
-2
قل لي الحقيقةَ .. واتركِ الأعذارا
فلسوفَ تدخلُ إن كذبتَ النارا

واللّه يكره شاعرا متكتّما [1]

ويحبّ من شعرائه الأخيارا

ويعلّق الأشرارَ من أشفارهم

ما أتعس الأشرار والأشفارا[2]

عندي سؤال كم أريدُ جوابَهُ

فأرحْ فؤادي المتعبَ المحتارا

أنا ربة الحيّ الذي قد جئتَهُ

والحكم حكمي فيهمُ إجبارا

وجمعتُ للحكمِ الجمالَ ،ألا ترى

---

[1] - هذا مِن ظنها ومن وسائلها في التضليل والضغط، وليس عليه دليل من النقل.

[2] - اللّه يعلّق الآثمين من أشفارهم، مثلما هو اعتقادنا صغارا،وفيه من البساطة والسذاجة الكثير،وهو ما يظهر عند هذه الحاكمة رغم قسوتها وجديتها الظاهرة التي تتطلبها مقاليد الحكم وصرامة العرش.

obeikandl.com

أنّي أحرّكُ سيّدي الأحجارا ؟
قل أيّ شيءٍ عاطفيّ رائعٍ
وهنا سندفن بيننا الأسرارا

أحتاج رغم الصولجان لكِلْمةٍ
لقصيدةٍ مملوءةٍ نوّارا
أولستَ تدري أنّ حلم أميرة
مهما سمت ، أن تسكنَ الأشعارا ؟

-3
قلتُ الأميرةُ في النساءِ صبيةٌ
لو غازلتْ مقصوص ريشٍ طارا
أو مرّ قربَ (العود) ذيلُ ثيابها
ومشتْ دلالا هزّت الأوتارا
هل أنتِ إن لمّعت زرّ عباءةِ

obeikandl.com

ألهبتِ في عُرْواتها الأزرارا ؟
أو إنْ لمستِ فتيل شمع مطفإ
لألأتِ فيه الضوء والأنوارا ؟
فدعي الضغوط،ولا تلحّي ،وافهمي
أنّي بطبعي أكرهُ الإصرارا
أنا لا أوقّعُ للنساءِ شهادةً
للحسن([3]) إلا واثقا مختارا

ما الذي قد يحدث لشاعر أغضب امرأة فعقدت لسوء صنيعه حاجبيها ؟

[3] - الفرق بين الحسن والجمال ، هو أنّ الجمال هو روعة كل عضو وجزء على حدة، فالعينان جميلتان ، والفم جميل، والأنف جميل ...وهكذا..
بينما لا يقتضي الحسن جمال كل عضو مفردا، لكنّ تناسق الأعضاء فيما بينها يضفي هالة تسر: وذلك هو الحسن.

وأيّ مخرج له مـن مـأزق الأنثـى إذا غضـبت ..وقـد قيل :إن غضبت عليك قبيلة رجال فـنم ليلـكَ،وإن غضبت عليك امرأة من قبيلة فلا تنم..

obeikandl.com

الحلقة السادسة

لِلَيلِ الصحراء صمتُه الذي لا يمزقه سوى حمحمة مُهرٍ في القريب أو عواء ذئب في البعيد .. ولم يكن هناك قمر يعبر فوق خيمة الساعر حين وقف أمام بابه قمر رنّت أساوره إذ طرق .. وفتح فرآها واقفة بدا منها من خلال ضوء السراج في يده ما عصف ببقية من عقلهِ .. وبين تلفّتِ الخائف وخفّة المستعجل ، أخبرَته بخوفها عليه من نقمة الحاكمة التي تضمر له شرا.. وقد سمعتها تأتمر([4]) به لتقتله..

طرقتْ خِبائي في الدجى عفراءُ

فلاحةٌ، بدويّةٌ.. شقراءُ

[4] - تأتمر به : تتآمر عليه ومنه قوله تعالى : (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك)..

شرفٌ لنا طَرقاتها ووقوفها
في بابنا، والكفّ والحنّاءُ
خجلُ العيون، هدوؤها، تلميحها
ميس الدلال، ذكاؤها،الإغراءُ
شرفُ لنا أن لا تنام لأجلنا
لتجيئنا ، منها لها أنباءُ
والوجه مثل البدر ينبض فتنةً
وضفائرٌ ذهبيّةٌ صفراءُ
والحاجبان المائلان كحظّنا
من بعضنا، والأعين الخضراءُ
أحسستُ حين رأيتُها ملهوفةً
بجفاف حلقي ، قلت: أنتِ الماءُ
قالتْ : ((بربك لا تضيّعْ لحظةً
واخرجْ سريعا ..ربما قد جاؤوا

قد كنتُ أعبرُ قُربَها وسمِعتها
أمرتْ بقتلكَ .. قلبها مستاءُ
أنثى معقّدةٌ ، تعيش بسمّها
ويعيش فيها ..عقربٌ سوداءُ
كالعنكبوت تمدّ خيطَ حلاوةٍ
ولها لرافض عرضها أدواءُ
يدعونها (سلمى) و(سيّدة الهوى)
لا تغررنّكَ في النسا الأسماءُ
اخرجْ يكاد الليل يذهب نصفُهُ
من حسن حظّكَ هذه الظلماءُ))
تمتمتُ : ((بل من حسن حظي ظبيةٌ
وحشيةُ العينينِ يا حوّاءُ
أنتِ الأميرةُ في عيوني ،صدّقي
والصوت أنت وكلهم أصداءُ

سبحان من جعل الأنوثةَ نعمةً
دون (الكبار) يحوزها الدهماءُ
يا ليتنا كنا التقينا ساعةً
في غير هذا الحيّ يا عفراءُ))
ضحكَتْ وأخفتْ ثغرها، وأظنّها
سقطتْ لقولي جوفها الأشياءُ
وخرجتُ أخبط في الظلام بناقتي
وكأنّها في خبطها عشواءُ
في القلبِ شوق للتي فارقتها
حين التقينا .. تشهدُ الصحراءُ

قطع الشاعر ساعات الليل على غير هدى ..وكان الفجر يملأ الأفق غبشا.. وقد قدّر اللّه وما شاء فعل .. ولو كان يعرف أنها هي لما رمى..لكنّه إذ أحسّ بطيفها سدّد لها من قوسه ما أرداها ، ظنا

أنها مـن سـباع البريـة وضـواريها .. ولعـل فضـوله وأنين توجعها قد استدرجاه إلى أن يقترب ..ورآهـا .. غزالة بيضاء ..كأروع مـا تكـون الغـزلان جمـالا.. وما فيها من بأس غير سهمه الـذي شـكّ أضـلاعها وأسـال دمهـا.. وتحـرك الصـوت الـداخلي يعنّفـه ويحرقه ندما:

لم أستطعْ فهْمَ الذي قد كانا
والمرء يفقدُ عقله أحيانا
وجريتُ أحضن رأسها وأقول لي:
يا ويل من قد روّع الغزلانا
وتلمّستْ يمناي جرح ضلوعها
وتلمّست.. فتلامست كفّانا
فخجلتُ من نفسي .. ولمت تسرّعي
وخفضتُ رأسي ..والتقت عينانا

أنا لو علمتُ بأنّ هذي ظبيةٌ
ما اشتدّ سهمٌ في يدي أو بانا
لكنّ (مكتوب الجبين) وإن نأى
لا بدّ من إدراكه إن حانا
سيّان إن كانت جريحة رميتي
أو كنتُ مجروحا لها.. سيّانا
فالجرح فيها ..والمواجع بي أنا
وأصابنا من قوسنا سهمانا
كانت تتمتم بالصلاة على النبيـ
ـيِ الهاشميِّ ، وتقرأ القرآنا
قرّبتُ بعض الماء.. أعرف جيّدا
بتجاربي ما يُعطش النسوانا
شربتْ وشمّتني ، وحكّت وجهها
لعباءتي كي تمسحَ الأجفانا

فصرختُ : أدفعُ كلّ عمري ، كلهُ
كي لا يكونَ عزيزتي ما كانا
أرجوك لا تدَعي الوساوس هكذا
تقضي علينا ..والعني الشيطانا

ولعلها عرفته ..وللغزلان على منابع الماء كما للصبايا من الثرثرات والهمسات والحديث عن الشعراء والأمراء والفرسان.. ولربما ذكرته ظبية من صويحباتها عندها ليلةً فخبّأت وصفه في قلبها وتمنت أن تقتله أو يقتلها يوما.. لذلك ما راعها جرحها ما دام هو راميها .. وقد رفعت نحوه عينيها المترقرقتين المتعبتين وقالت بين التبسّم المجروح والتوجع اللذيذ:

ما راعني جرحي العميقُ الدامي

ما همّني ، ما دمتَ أنت الرامي
مِن حظ أيِّ غزالةٍ ،مِن سَعدِها
أن تلتقيك بلحظة الإعدامِ
ولئن تكون وليس غيركَ صائدي
فلذاكَ عندي منتهى أحلامي
ولذاك عندي ما يشرّفُ موتتي
ولذاك عندي أعذب الآلامِ
أنا لا ألومكَ.. عكس ذلك كلهِ
شكرا جزيلا يا أخا الإسلامِ
شكرا لأنكَ قد شققتَ بلمسةٍ
فنية قلبي المَشُوقَ الحامي
سيغار مني من سيسمع قصتي
ويسيل لي حبر من الأقلامِ
وتُحدّث الجدات عني في الدجى
أحفادهنّ بليبيا والشامِ

وأكون في أهل الهوى قدّيسةً
وشهيدةَ الغزلان والأرآمِ
فأنا التي عاشت تمنّي نفسها
لو أنّها (ذات المقامِ السّامي)
دعني أموتُ لكي أجمّلَ موتتي
بدمي لديكَ .. وتنتهي أوهامي
وأكون عندك ما حييتَ حبيبةً
أو مصدرا للشعر والإلهام

بين الموت والحياة هي.. رأسها في حجره .. عيناها الدامعتان على ثوبه..في جرحها سهمه.. وفي قلبه نبض جرحها..
كان في عينيها ما يعرفه عادة في عيون المودّعين .. ولئن ماتت فستبقى بآبئها تؤنبه كلما رأى غزالة ..أو أنثى كغزالة..

هـامش : 1- تـأتمر بـه : تتـآمر عليـه ومنـه قولـه تعالى : (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك)..

obeikandl.com

الحلقة السابعة

ليس على مَن لم يكن حينها حاضرا أن يعرف ما حلّ بالغزالة المصابة .. والغامضات من الأحداث تفعل في النفوس والعقول ما لا تفعله الواضحات ..وكانت الشمس تميل إلى مغربها حين بلغ الساعر مضارب قبيلة (سوق النساء) ..وهي قبيلة تؤمها القبائل لسوقها الشهير الذي يعقد في كل عام مرة ، وفيه مما يُذهب العقول أصناف وأشكال.. وكان من حظ الساعر أن ينزل بالقبيلة ولم يبق على موعد قيام السوق سوى خمسة أيام .. كما كان من تقاليد القبيلة أن تعهد بصبایاها إلى أوّل قادم للسوق ليعلّمهنّ أصول النحو والصرف والكتابة .. ولأنّ الساعر كان أوّل الواصلين، كان عليه أن يذعن لذلك التقليد

..ويفهم لأول مرة (إنّ كيدكنّ لعظيم) حين يجتمع مكر النساء على رجل أعزل..

-1

همسٌ كثيرٌ.. كيدُهنّ عظيمُ
هزٌّ لكفٍّ، ناعمٌ[5]..تسليمُ
غمْزاتُ مكرٍ.. نظرةٌ وحشيةٌ
مِن عين أنثى قلبُها مكلومُ
ويدٌ لبنتٍ فتّحت قارورةً
فسرى شذاها الفاتنُ المسمومُ
وأساورٌ رنّتْ بهزّ صبية
للمعصمينِ .. وقصدُها مفهومُ
وروائح الصحراءِ تملأ ثوبها
الشِّيحُ، والعرعارُ، والقَيْصُومُ

[5] - ناعم صفة للهز لا للكف..

وعلى الشفايف ثرثرات حلوةٌ
ينسى بها أحزانَهُ المهمومُ
ومعلّمٌ قلقٌ يحاولُ شرح ما
هو عندهنّ مقدّما معلومُ
لمَسَ الجبينَ بكفّه متأفّفا
فرأى كأنّ جبينه محمومُ
جوٌّ رقيق عاطفيٌّ ساحرٌ
باللّه كيف سينجح التعليمُ ؟

وفي خيمة الدرس كان الساعر يقف على التناقض الكبير بين الجمال الساحر لمن قيل عنها (جميلة الحيّ) وبين أصابعها التي ترصّعها الخواتم دون أن تحسن كتابة حرفين..ليقول لها معاتبا وقد لمح في عينيها بعض جنون الطالبات المشاكسات:

-2

لا تتعبيني واكتبي لي (الحاءَا)
امحي..أعيدي..وانقطي لي (الباءَا)
لازلتِ في فنّ الهوى تلميذةً
في الابتدائي، تُكثِرُ الأخطاءَا
فإذا رأيتِ حواجبي مقرونةً
أرجوك لا تستصغري الإملاءَا
عجبا لمن عاتبتُها في درسها
فتبسّمت لي بسمة صفراءَا
وبكت ومالت كي تريني كفّها
وعليه ميمُ (محمدٍ) حنّاءَا
أرجوكِ يا بنت الحلالِ تأدّبي
ودعي لخارجِ حصّتي الإغراءَا

فأنا شديدٌ في الحروف وشكلِها
وأحبّ من لا تفسد الأشياءا
فإذا أردت الخير كوني مثلما
شاء المعلّمُ وافعلي ما شاءَا
وتعلّمي سقي الورود، وبوْسَها
والنحو والتعبيرَ والإنشاءا
ولكي تكوني مثل أيّ قصيدةٍ
وبمستوى شعري دعي الأهواءَا
هل فوق رأسك ريشةٌ كي تجهلي
معنى الزهور وتصبحي الزهراءَا ؟
لا لن تكون من النساء حبيبتي
مَن لا تجمّدُ في الجمالِ الماءَا

وأجابته التلميذة المتمردة بكل صراحتها:

-2

ضحكتْ وقالت : أيّ درس هذا ؟
أتظنّ أني طفلةٌ أم ماذا ؟
أفلا ترى أنّ النحاةَ جميعَهم
عشقوا وكانوا في الهوى أفذاذا ؟
عِلم الرموش بحيّنا يا سيّدي
لا نحوُكم ما يفتنُ الفولاذا
بصراحة.. أنا ما حضرتُ لدرسكم
إلا لأعرض حسنيَ الأخّاذا
أنا لا أريد النحو.. اِفهم جيّدا
إني أريدُ الحبَّ والأستاذا

خمسة أيام مليئة بالأحداث ستسبق اليوم الأول لسوق النساء..والقادم يشوي الصخر..

الحلقة الثامنة

في اليوم الثاني من إقامة الساعر في قبيلة (سوق النساء) ، وقد كان جالسا في ظل خيمته يتأمل الآفاق مشتاقا ..إذ وقفت عليه مَن قيل له بالأمس إنها أجمل صبيّة في الحيّ ، ورفع عينيه إلى وجه هذه الحزينة المترهبة العازفة عن الدنيا .. ولعلها قد رغبت منه برأي يهوّن عليها، أو كلمة تعيد لها بعض ما فات من الأمل..وحدثته أنها قد جاوزت الأربعين وما ازدانت لها كفّ بحناء العرائس ..وإنّ ذلك قد غيّر من طبعها وكسر إقبالها على الحياة، فلا تكاد تُرى إلا باكية عازفة عن الدنيا .. وفي الليل لها ما لمثيلاتها من السهر وإحراق الشموع ومناجاة الزهور الميبسة في علب

القطيفـة.. وقـد راعتهـا بسـمة الشـاعر العريضـة، فقالت :

-1

قالت كأنك لا تحسّ بحالنا

إن لم تراعِ لظى العنوسة ، راعنا

نقضي النهارَ بذكرياتٍ قد مضتْ

ونبيتُ نبكي الليلَ من مأساتنا

إنّ الرجالَ على زمانِ توهّجي

لم يطرقوا قلبي المعذّب ساخنا

أفبعد هذا سوف يأتي فارسٌ

ليعيدَ لي حلمي الجميل الفاتنا

وأقوم للمرآةِ أرسم حاجبي

وأكحّل الرمش الضعيفَ الواهنا ؟

ولقد تزوّج من رسمنا وجهه

فوق الوسائدِ.. ثمّ أصبح خائنا

وكأنّه استمع إلى طفلة تهوّل الأمور..فأنشأ يقول:

-2

باللّه كيف عرفتِ أنكِ عانسُ؟

أو أنّ حظكِ في زواجكِ تاعسُ

صدّقت كذبتك الخطيرة فانتهتْ

فيك الحياة، وهل يعيش اليائسُ ؟

أنا لا أحاول فرضَ رأيي عنوةً

أبدا، وأعرف أنّ رأسك يابسُ

لكنّ قلبي لا يميل لظبيةٍ

يئستْ ،وكم يعييه وجهٌ عابسُ

فإذا أردتِ كلام صاحب خبرةٍ

هذا كلام فارغٌ ووساوسُ

في القلب عمرك..لا يشيب وما له
في بابهِ وعلى النوافذ حارسُ
و من الأوانس بالقلوب عجائزٌ
ومن العجائز بالقلوب أوانسُ
إن ضاع حُلمكِ لم تفدكِ (شهادةٌ
عُليا) ،ولم تُعجبْ عليك ملابسُ
لازلتِ مثل الأمس (...).. حسنكِ متعِبٌ
يشوي، وطرفكِ مستبدٌّ ناعسُ
وإذا ابتسمتِ ولاح سنّك ، مشكلٌ
وإذا مشيتِ فقدٌّ بانٍ مائسُ
مازال فيكِ تمردٌ، ومقالبٌ
ومشاكساتٌ حلوةٌ ، ودسائسُ
ما زال في عينيكِ لمحٌ فاسقٌ
يغري ، ويعجب نفسهُ، ويعاكسُ

مازال في رفّ الخزانةِ ربّما
خرزٌ جميل أخضرٌ، ونفائسُ
وشراشفٌ مطوية لأوانها
وستائرٌ وخواتم ومحابسُ
مازال في صمت الحقائب ربطةٌ
للعنْقِ (للشخص الذي...)، وبرانسُ
مازال فيها شمعدانٌ أبيضٌ
ووسائدٌ محشوةٌ وطنافسُ
يوما يقوم لكي يجيئكِ طالبا
يدكِ الحبيبُ اللامبالي الجالسُ
فبأي عمر حسب رأيك يا ترى
يمضي القطارُ ..ولا يجيءُ الفارسُ؟
لا سنّ للمكتوب.. يأتي حينما
يأتي.. فتصعد للقطار عرائسُ

obeikandl.com

ويظلّ قلبُ المرء ينبتُ كلما
يسقيهِ مِن حلو القصائدِ غارسُ
في الحظّ يوجد أوّلٌ من بعدهِ
ثانٍ، ويوجدُ خامسٌ أو سادسُ
إن أخطأ الأنثى (أغسطسُ)..حظها
من بعد ذلكَ (فيفري) أو(مارسُ)

ولقد أحسّ الشاعر بانفراج بسمة مترددة على شفتيها حين أخبرها أن لكل امرئ في عمره ثلاث مراهَقات يعيشها قلبه ، في العشرين،والأربعين،والستين :

-3
ويحبّ قلب المرءِ في العشرينَا
في الأربعينَ يحبّ، والستّينا

في العمر مَيْعات ثلاثٌ للهوى
يا مَن بأمر القلبِ لا تدرينا
لا تتركي في الانتظار محطةً
سيجيئها من يحملُ النسرينا.

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة التاسعة

-1

هـذا الضـجيج ضـجيج السـوق.. سـوق النسـاء .. وللدهشة هنـا حظّهـا الأوفـر ..ومـا فـي السـوق إلا مندهش حائر قد لعب السحر بعينيـه وفـؤاده مـن تعجّبه هواء..أو باسط للريح أجنحة أحلامه..

سوق النساءِ.. خواتم وأساورُ
وملابسٌ بدويةٌ ومعاطرُ
وسروجُ ديباجٍ تزيّنُ خيلَها
وقصائدٌ شعريةٌ وشواعرُ
وورودُ باديةٍ تقطّرُ حيةً
وعصيرُ تمرٍ منعشٌ ، ومَعاصرُ

وهوادجٌ صوفيةٌ ألوانها
تسبي العيونَ.. وماء زهرٍ فاخرُ
وطيالسٌ ومسابحٌ ومراوحٌ
وستائرٌ لمخادعٍ ، ومباخرُ
وعقودُ تبرٍ رُصّعت بلآلئٍ
وخواتمٌ من فضة وأساورُ
خلف الحرائر خادماتٌ حُمّلتْ
ممّا يسبّحُ إن رآه الناظرُ
وعيون كحلٍ – والبراقع فوقها
أو تحتها- مما يحبّ الساعرُ
ومطرّزاتٌ بالعقيقِ ثمينةٌ
ومحازمٌ جلديةٌ وستائرُ
والناس فيها سائل عن حاجةٍ
ومقارنٌ بين الروائعِ حائرُ

obeikandl.com

أو خاطبٌ قد حدّثوه بأنها
ستكون حاضرةً هنا ، أو تاجرُ
أو باحثٌ متجوّل مثلي أنا
أو مَن يداوي قلبهُ..أو شاعرُ

-2
على باب السوق رآها فاشترى وروى:

مدتّ إليّ يدا بثوبٍ .. تعرضُ
قالتْ: ((يليقُ بكَ القميص الأبيضُ
ولكَ الخيارُ.. لكل شخص ذوقهُ
وأنا أسوّق سلعتي.. لا أفرضُ))
قلّبتهُ .. ولبسته قدّامها
ما مثل هذي حين تَعرضُ تُرفضُ

قلتُ: ((اشترينا ..رغم أنّ قميصكمْ
أغلى قليلا – لا يهمُّ -، وأعرَضُ
أنا لا أكسّر خاطرا لصبيةٍ
وإذا رفضتُ شراء ثوبك أمرضُ))
كانت تعدّ نقودها في كفّها
وتقول ما في نفسها وتفضفضُ
قالت : تصدّقُني؟..
..... بأول نظرةٍ
أحسستُ قلبي في ضلوعي ينبضُ

-3

لم يناً خطوتين حتى رأى ما جعله يشتري غزْلا على مغزل ،هو الذي لا حاجة له لا بغزل ولا بمغزل..

obeikandl.com

نظرت إليَّ بأعينِ كالفلفلِ
حرّاقةٍ ، يا ليتها لم تفعلِ
والحاجبان يشيّبانِ ، وقدّها
كالبان ممشوقٌ كقدّ الفيصلِ
أنست فؤادي كلّ من أرهقنهُ
في العشق من حبّ قديم أوّلِ
ووقفتُ أخرج من جيوبي صرتي
كي أشتري غزلا لها في مغزلِ
ليس المهمّ الغزلَ..أعرف جيّدا
لكنّ عينيها أصابت مقتلي
وأنا بطبعي عاطفيّ عاشقٌ
إن هزّ قلبي الكحلُ لم أتحمّلِ
صارحتها .. والقلب كاد يحبّها:
((أوقعتِني يا هذه في مشكلِ

هي دعوة للوالدينِ تحققتْ
أتُرى إذا رقّا لحالي تنجلي ؟
بعض النساءُ إذا رُزقن بآبئا
ممنوعةً ، يكسرن قلب الأعزلِ
والبعض مثلكِ.. من جميل حيائها
أمآقها مكسورة للأسفلِ
وأنا بطبعي عاطفيّ عاشقٌ
وإذا رأيتُ الحسنَ لم أتحمّلِ
قلبي ضعيفٌ.. لا أقاومُ شعرةً
في جفنِ أنثى مستبدّ أكحلِ
ماذا عليّ إذن لأربح راحتي
أبقى بعيدا ؟ أم ألازم منزلي ؟))
لو كنت حاكم حيّها لمنعتها
من أن تكشّفَ وجهها بالمجملِ

obeikandl.com

أو كنت أعرف أنّ هذا حيّها

أو لو سمعت بحسنها لم أنزل.

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة العاشرة

-1

للسوق روائح العطر ونباتات الصحراء والبخور والتوابل الشرقية ..له ألوان قماشه ،ديباجه وحريره ، له ضحكات الصبايا .. وحمحمات الخيول الأصيلة ، له عيون الغزلان حين تصيد، وكنانات الصيادين وهي تتزود بالسهام..له مجالس الشعر وحِلَقه ..حيث لا بد من ديوان للعرب ..

وكان مما رآه الساعرُ في السوق شاعرا فارسيّا يرطن بما كان عند العرب عيبَ عُجمة..حين كانت الضادُ قشيبة مزهوة ، فقال:

ورأيتُ فيما قد رأيتُ بسوقهمْ

رجُلا تشاعرَ ،فارسيا ، يرطنُ

لا من يمطّ شفاههُ أو ينتحي
لسماع حرفٍ، كلهم يستهجنُ
فلمن سيتلو الأعجميُّ (زَبورهُ)
ومَن التي ستموت فيهِ وتُفتنُ ؟
ولعلّ في أشعاره قدْحا بنا
ولعله فيها يسبّ ويلعنُ
ماذا سينثرُ من سرور يا ترى؟
وجميع ما في رأسهِ متعفّنُ
وبأيّ سكّين سيكتب شعرهُ
والشعرُ ورد ناعم لا يطعنُ
ولعله جاسوسُ حربٍ يختفي
خلف القصائدِ خفية ، لا يعلنُ
كانت قبائلُ يعربٍ (عربيةً)
ولها حواجبُ إنْ أُثيرت تُقرنُ

obeikandl.com

تشوي السباعَ ،وليس فيها (ماسحٌ
للجوخ) ، أو مسّاحُ نعلٍ يَدهنُ

-2

ولعلّ الساعر رأى من أشباح الحداثة نبتا آنذاك،لا يأبه بما يقول آبه، ولا يلقي له السمع عابر، فقال:

ورأيت (شعرورا) يعذّبُ نفسهُ
يطهو ويفسد ما طهاه ويعجنُ
ويعود يطهو.. ثم يعجن ما طها
لا الخبزُ ينضجُ، لا العجينةُ تُتقَنُ
والناس تضحكُ مِن غرائب لفظهِ
عجبا، وتهمس : إنه يتمجننُ:
(الرمل طارَ لقعر بئرٍ في السما
والنوم نامَ ،وميّتٌ يتحسّنُ

والجُبنُ في ضرع الدجاجة رائبٌ
والصخرُ في إبريقِ طينٍ ليّنُ
والخيل أسرعُ.. أم رمالُ عواصفٍ
في الجوّ أعلى ؟أم بعيري أسمنُ ؟
والخمر صحوٌ، والنبوّةُ عقدةٌ
والشوكُ يعجبُ ،والقمامة تفتنُ)
مرتْ نساءٌ.. قهقهتْ غجريةٌ
قالت : ((وشِعركَ مثلَ فكركَ منتنُ
وإذا تحسّنَ سوف أحلق شاربي
وأصيرُ أحفظُ بعضه وأدندنُ
هذا هو الشعرُ الجميلُ))، وأومأتْ
لقصيدةٍ مِن شاعرٍ يتفنّنُ

-3

أومـأت الفتـاة إلـى شـاعر خليلـيّ يهـزّ النـاس هزا،يغمى علـى بعضـهم مـن أثـر مـا يقـول ، ثـم جرّت ذيل جلبابها البدويّ وفي عينيها نارٌ ، وليست نارَ الكحل..واهتزّ الجمع على وقع الكلمات:

خطرتْ ببالي فجأةً عيناها
وأنا الذي حاولتُ أن أنساها
فشبكتُ عَشرا فوق رأسي معجبا
وصرختُ : يا اللّه.. ما أحلاها
لو أنها سيلٌ خطيرٌ جارفٌ
لرميتُ هذا القلب في مجراها
أو أنها كانتْ غزالةَ ديرةٍ
لغزوتُ ديرتها ..لكي ألقاها
ماذا تريد صبيةٌ من شاعرٍ
قد كاد ينسى ما الهوى.. لولاها؟

تدعى حليمةُ..أيّ حلمٍ عندها ؟
ما أبعدَ الأسماء عن معناها

-4

وما إن أنهى الشاعر العربيّ قصيدته حتى اهتزّ الجمع الكثيف حوله:

البعض صاحَ..وقال يدعو باكيا :
لا فضّ يا حَسَن القصائدِ فوكا
والبعض مدّ على الشفاه أصابعا
لذهولهِ ، متكسّرا منهوكا
وبكت صبايا..بعضهنّ سألنهُ:
(ما سنّ تلك، وما اسمها؟ نرجوكا)

-5

obeikandl.com

ولعـلّ شـعر ذاك قـد حـرّكَ فـي السـاعر قريحتـه ، فاهتزّ منتشيا يدوّخ السوق وأهله :

يا راسما للشعر بالألوانِ
لا فضّ فوكَ..نفخت في نيراني
والشعرُ ما لم يُفْتِ فيه مشايخٌ
بالمنع للمرضى وللنسوانِ
ما لم يعلّق في المنازلِ زينةً
ما لم يكنْ كالفصّ في التيجانِ
ما لم يكن نبعا رهيبا صافيا
لأيائل الصحراء والغزلانِ
ما لم يُرشَّ على الورود لسقيها
ما لم يكن كالكحل في الأجفان
ما ليس يُنسجُ للعرائسِ فاتنا
من أروع الديباج والكتّانِ

إن لمْ يكنْ لجميلةٍ فستانها
إن لم يكنْ كالطرز في الفستانِ
إن لم يكن ذكرى تحرّكُ ما مضى
وتدقّ باب البعد والنسيانِ
ما لم يكن في بسمةٍ لصبيةٍ
ضحكت فلاحت فتنة الأسنانِ
إن لم تكن من قيل في أوصافها
مغرورةً تعلو على النسوانِ
فتقول وهي تعيد بعض مقاطعٍ:
(قد صرتُ فاتنة ...وما أحلاني)
إن لم يكن مشوى ..حريقا هائلا
يكوي قلوب الغيد بالنيرانِ
إن لم يكن يغمى على قرائهِ
ويحرّك الأمواج في الخلجانِ

obeikandl.com

ويدمّر المدن التي يجتاحها
كالنار، كالإعصار، كالطوفانِ
إن لم يكن كالوردِ...كان جنازةً
وسرابَ زوبعة على فنجانِ

-6

ولعلّ فاتنة لا تعرف الساعر قد فوجئت بما سمعت، وانتشت بما اغترفت ..فاقتربت ليقول عنها:

هي رغم كلّ جمالها لا تعرفُ
ماذا وكيف تقول أو تتصرفُ
وقفت بجانب ناقتي وتبسّمتْ
قالت : مساء الخير.. هل نتعرّفُ
فحدجتها قبل الجواب بنظرةٍ
وأجبت: طبعا إنني أتشرّفُ

ماذا الذي سيكون من أمر هذه التي ترغب في التعرف على الساعر؟ ..وهل ستخطف قلبه وهو قاب قوس أو أدنى من الرحيل إلى الجنوب الجنوب ..حيث ريح نجد والحجاز ، وطِيب مكة ، وبقايا آثار وأنفاس المصطفى صلى اللّه عليه وسلم ..وفانوس الشعر في جوار الحبيب يضيء على استحياء..؟

obeikandl.com

الحلقة الحادية عشرة [6]

-1

كان قلبُ الساعر حين استوقفته تلك ، حمامةً بيضاء تيمّم وجهها شطرَ المسجد الحرام ومسجد القبة الخضراء..لذلك لم يجد لها عنده إلا أن يهديها قارورة عطر زرقاء، ثم يلقي خطوه إلى حيث طار فؤاده..وفي استغراب كانت واقفة تتأمله وهو يغادر السوق لا يلتفت.

أهدى لها قارورةً زرقاءَ

تهوى الفتاةُ بطبعها الإهداءَ

[6] - تسكّن العرب الشين في عشْرة ، إلا تميما (وأنا منهم) ،فإنها تكسرها..عَشِرَة.

أثنى عليها ..مادِحًا أقراطها
والعطرَ والعينين والحنّاءَ
أثنى عليها ..زُلزلت زلزالَها
وتمايلت من مكرها إغراءَ
هو ليس يجهل أنها مغرورةٌ
وصغيرةٌ لا تفهم الأشياءَ
قد كان يقدرُ أن يجنّنَ قلبها
ويبيد كل سدودها لو شاءَ
لكنّه ألقى التحية باسما
ومشى يريد القبةَ الخضراءَ

-2

هي الأقدار تفكّ حبالها عنك لتنطلق، أو تعقدها عليك لتستبقيك ..وقد شاءت للساعر أن يتمزّق

بـافتراق قلبـه المرفـرف بعيـدا ، عـن جسـده الـذي أوقعـه المـرض فجـأة ..هـو قـد نـوى ..لكـن..ومـا تشاؤون إلا أن يشاء اللّه ..

هو قد نوى ..لكنّها الأقدارُ
تختار للناوي ولا يختارُ
فكأنما المكتوب يطرق من نوى
والمرء في لوح القضا مسمارُ
والرِّجْل تخطو ، غير أنّ وصولَها
يبقى كما قد قدّرَ القهّارُ
قد كان وجّهَ نحو مكة قلبهُ
ولكَم تروق لمكةَ الأسفارُ
كم هام حبا بالنبيّ المصطفى
وتعطّرت في ثغره الأشعارُ

ناداهُ مَن نادى الحجيج لبيتهِ
ما للمُنادى لِلِّقا أعذارُ
واهتزَّ حقلُ الخيزران بقلبهِ
إذْ هبَّ فيه العاصفُ الكسّارُ
فكأنّ حبلا في الفؤاد يجرُّهُ
والشوقُ من أسمائه: (الجَرّارُ)
لكنّ أوجاعا ألمّت بالفتى
لم يستطعْ.. وتأجّل المشوارُ

-3

كان الساعر قد غادر قبيلة سوق النساء ، وقطع في سباسب الرمل أميالا وأميالا حين ألبسه المرض عباءة الوجع والضعف..وما كادت شمس تلك العشية تغرب حتى وقع عن ناقته مغشيا

عليه ، قرب قبيلة كان قد رأى مضاربها عن بُعد فأمّها مستعينا بها على رحلته..
صباحا وقد مرت عليه ليلة على تلك الحال.. كانت صبية من صبايا الحيّ تحدّث جرّة الماء في يدها عن أسرارها ، وهي تسيربها نحو نبع الماء، وهناك رأته ملقى على الثرى ، ميتا، أو كالميت ..رغم كل ما به ،ورغم ما ربوها عليه من الحذر من الرجل والارتياب حتى في وَرده، فقد كان فضول المرأة داخلها مثل بركان..فمن يكون هذا ؟ وما الذي أتى به؟

وجدَتْهُ قرب البئر مُلقًى ينبِسُ
بكلامٍ هاذٍ،وجههُ متورّسُ
نظرتْ إليه فأزهرتْ لوزاتُها
ونما بأضلاع الفتاةِ النرجسُ

يا ليت لو مَدتْ يدا لتمسَّهُ
لكنّها من خوفها لا تلمسُ
ماذا ستفعل؟هل تنادي أهلها؟
أم هلْ تسير لحالها ؟ أم تجلسُ؟
رغم احتياطٍ عندها من مثلهِ
وهي التي من مثله تتحسّسُ
وضعتْ أصابعها على أضلاعه
لترى إذا هو لم يزلْ يتنفّسُ
متأوّها ، طورا يئنّ بغصّةٍ
ويعود يقبض حاجبيهِ، ويحبسُ
حُمّاه تشويه وتُحرقُ جسمَهُ
وشفاهُ بجَفافها تتيبّسُ
جلست تراجع وجهَهُ بعيونها
مثل الكتابِ ، تجول فيه وتدرسُ

رغم الذي هو فيه من حالاتهِ
كانت تُدير عيونها تتفرسُ
كم قد تمنّت أن تفتّش جيبهُ
بفضول أنثى طبعُها متوجّسُ
مَن قد يكونُ ؟ وهل له في حيّها
أهلٌ؟ وهلْ هو تاجرٌ أم مفلسُ؟
أم لصٌّ عيرٍ، أمْ عدوٌّ حاقدٌ
في الليل يقصد حيّها يتجسّسُ ؟
أم عاشقٌ يأتي ليخطف نظرةً
لحبيبةٍ ، أو ما به يستأنسُ ؟
أثوابهُ تبدو عليه جميلةً
والمرء يفضحُ أمرَهُ ما يلبَسُ
وجرت لتخبرَ، وهي تشعر أنها
للحب أوّل مرة تتحمّسُ

obeikandl.com

-4

لليلتين لم يفق ..لم يفتح عن بؤبؤ جفنا..إنما هما العاصران ، الحمى ووجع يظهر في تشنجات وجهه وأنّات متعبة تشقه بين حين وحين.. كان والد الصبية يرعى ضيفه المريض في خيمة قريبة من خيمتها، وكان بإمكانها أن تسمع أناته وزفراته ..ولعلها تعمد أحيانا إلى هزّ حليّها عن قصد ، عساها توقظه بذلك من غيبوبته التي أتعبت قلبها الصغير..

دمعٌ على رمشٍ على أحداقِ
مصفرةٌ([7]) من شدة الإرهاقِ
ولليلتينِ على التوالي لم تنمْ
مِن ركعة الإيتار، للإشراقِ

[7] - مصفرة بالرفع ، أي هي ،البنت ، وليس صفة للأحداق..

كانتْ إذا قلِقتْ تُطقطقُ أصبُعًا

أو تعصرُ الصدغينِ في إطراقِ

ولربما عمدتْ إلى إيقاظهِ

قصدا بهزّ القرط والأطواقِ

قلِقتْ عليه، فهل سيفتح عينَهُ

كي تهدأ الأمواج في الخفّاقِ؟

ذهبتْ نساءٌ في القديم بقلبهِ

هل سوف يذهب عند هَذِي الباقي ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثانية عشرة

-1

مرّت ليلتان ..وجاء صباح ثالث يـوم..وفـوجئ والـد ميســـون بضـــيفه المـــريض يفـــتح عينيـــه المتعبتين..ويطلب ماء..

نادى أبو ميسونَ: ((يا ميسونُ
طيري إليَّ..استيقظَ المسكينُ
هاتي له لبنا وخبزا ساخنا..
ولتنظري هل عندنا ليمونُ))
في طرفة للعينِ كانت عندهُ
مجنونةٌ وجنونُها مجنونُ
وقفتْ تمسّحُ وجهه بعيونها
وكما تمامًا يفعل المفتونُ

obeikandl.com

كان الثلاثة كلهم في خيمةٍ
الماء والنيران والبنزينُ
قالت تحدّث نفسها في سرّها :
((يبدو عليه بأنه (ملعونُ)[8])
عيناهُ رغم الداء – أُقسِمُ- فيهما
سرٌّ كبيرٌ فيهما مدفونُ
أُعطي حياتي كلَّها وأساوري
ليقول لي هل قلبهُ مسكونُ))
لعبتْ بها أفكارها وتبعثرتْ
وازدادَ في تخمينها التخمينُ
ولعلّ والدها أحسّ بأمرها..
بالزهر يفضح نفسه تشرينُ
قال: (اتركينا- إن سمحتِ- لوحدنا)
لكنْ تُراهُ يفيدهُ التحصينُ؟

[8] - ملعون ، بالمعنى الدارش في بلاد الشام ، ويعني :الشقيّ المشاكس

obeikandl.com

لا يملك المطعونُ نفيَ نزيفهِ
من جرحهِ ..لا يملكُ المطعونُ
ما ([9]) حينَ يعصفُ شاعرٌ بصبيّةٌ
شيءٌ يطمئنُ، واحدٌ، مضمونُ

-2

ليلا ، وقد خفّ عنه ما كان يجد ويحاذر، كان على الساعر أن يجيب على الأسئلة التي كان يراها في عيني مضيفه الشيخ ..ولم يكن الساعر عند الشيخ نكرة، فقد ترامت أخباره وسبقته إليه أشعاره ..ولأن والد ميسون ما عنده غيرها يملأ قلبه حبا وحياته جمالا ، فقد خشي على قلبها وهي المطلقة منذ عامين أن يزلزله الساعر

[9] - (ما) هنا حجازية كقوله تعالى : (ما اللّه يريد ظلما للعباد) (وما ربّك بظلام للعبيد)

بنظـرة أو ببيـت شـعر فينـتكس ويعـود كمـا كـان داميـا متوجعـا ..لـذلك عقـد معـه اتفاقـا علـى أن يغادر ليلا سرا ..

عند العَشاءِ تصارحا وتكلّما
وتعاهدا بيديهما أن يكتما
شعرَ المريضُ بوالد متخوّفٍ
منه على (قلب الضنى)([10]) فتبسّما
يحمي أبو ميسونِهِ ميسونَهُ
لو لم يخفْ فعلا عليها ما حمى
يدري أبو ميسون أنّ زجاجها
إنْ يُرمَ لو بالياسمينِ تحطّما
وبأنها مذْ خانها وتطلّقتْ
من لم يخف سيفا ولم يخشَ السما

[10]- الضنى: النسل ، ضنت المرأة ، وضنأت : كثُر أولادها

obeikandl.com

مشروخةُ العينين تسكبُ دمعها

وإذا انتهت دمعاتها تبكي دما

ولعلّ والدها أحسّ بمهرةٍ

فيها ،تحمحم للغريب، فألجما

أو قال وهو يصبّ قهوةَ ضيفهِ

(في نفسه) : قد آنَ أنْ تتعلّما

هل سوف أتركها تحبّ بذوقها ؟

وإذا أحبت قلَّ أن تتفهما

-3

ولأن قلب المرء يحسّ ويخبرُ، فقد شعرت ميسون ليلتئذ بما دُبّر لحماية قلبها ..وكان ما ظنت، فقد حزم الضيف أمتعته في جنح الظلام ترفقا بها حسب طلب والدها..

نفختْ بدَورة ثغرها المصباحا
حتى إذا فعلتْ.. فلن ترتاحا
في الليلِ، للسهر الطويل نساؤهُ
مَنْ يشتهين الكتمَ لا الإفصاحا
شعرتْ بضغطة غصّة في قلبها
والقلبُ يخبرُ مثلها إن باحا
من فتحةٍ مِن فوق باب خبائها
سحرا أطلت..أبصرت أشباحا
ورأته يحزمُ حملَه ومتاعهُ
لم ينتظر من أجلها الإصباحا
عرفت بما يجري ، تأكّد ظنّها
والأمر لا يتطلّب الشُرّاحا
لم تُشبع العينين منه وقد مضى
لم ترتشف من عينه الأقداحا

لم تدعُ نسوة حيّها ليرينهُ
لم تجرح الكفّين والتفاحا
كتبت أمانيها على لوحاتها:
(ليكنْ أنيقا، فارسا، لمّاحا)
لكنّ والدها بدافع خوفهِ
سرّا ليحميَها، محا الألواحا
نفضت يديها..أغلقتْ أحلامها
ورمتْ بمدّ ذراعها المفتاحا

في الحلقة القادمة أخبار للساعر عن التي خرج في رحلته بحثا عنها ..وفيها وصول الساعر إلى مشارف البلد الحرام .. حيث يتزلزل القلب وينتشي..

obeikandl.com

الحلقة الثالثة عشرة

-1

أقلّته الغبراء أياما .. يمدّ فيها عنقا بين الحين والآخر يستشرف في شوق .. وهاهي حبيبته السمراء، الطيبة، الشريفة مكة، قد لاحتْ نخلا وحجرا ..وهاهو والوقت وقت مغربٍ يحنو عليها برموشه إذ يكحّل عينيه بها ، فيختلط ضوء فوانيسها بدموع عينيه .....يغمض ويشدّ إلى صدره فضاءً واسعا من ريح النبيّ صلى اللّه عليه وسلم وطيبه..لكأن نسيم المساء كان يحملُ أذان بلال رضي اللّه عنه إلى سمعه..لكأنه أحسّ بأنه سيرى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في مجلس من المجالس أو طريق من الطرقات.. ولعله قال لنفسه يهدئ من روع دهشتها:

ها قد وصلتَ..بهذه الأرجاءِ
قد عاش سيّدُنا أبو الزهراءِ
أَمْسِكْ عيونكَ لحظتينِ، فضحْتنا
وارأفْ بقلبِ الناقة العجماءِ
فلها بهذي الدار مثلَك حبُّها
لكنّها جُبِلتْ على الإخفاءِ
انظر لعينيها لتعرف سرّها
طوبى لقلب النوق من بكّاءِ
شُمَّ النسيمَ..ففيه ريحُ محمّدٍ
ريحُ النبيّ تدومُ في الأجواءِ
وأصِخْ ستَسمع من بقايا صوتهِ
ما يفتنُ الأذنينِ بالإصغاءِ
وبُسِ الرمالَ فقد تُصادفُ ذرةً
شرُفَتْ به مِن هذه الصحراءِ

-2

في حال يرثى لها..اقترب من البناء الذي لاتزال بصمات إبراهيم وابنه عليهما السلام عليه ..كشف عن صدره ثوبه ووضع قلبه على حجارة الكعبة مبتردا ..ولئن كان دأب الناس حول الكعبة تدافعهم عليها ممدودة أيديهم إلى حجرها الأسود ، فلقد كان نشاز الساعر دهشة للطائفين المتحلقين حول فص اللؤلؤ الأسمر الطيّب..ولم يملكوا دهشتهم وهم يرونه باكيا يشق ثوبه عن صدره ويمسك أيسر أضلاعه بيديه يقربها نحو الحجر ، كأنما ثغره في قلبه ، أو لكأن به نارا يقرّبها ليبترد ..إلا أن يوسّعوا له على غير عادة،ليمرّ في أروع ما تكون حالات العشق والشوق ..

ما مدّ كفّا..مدّ قلبا يُسلَقُ
يغلي بقِدر العاشقينَ ويُحرَقُ
لمّا رأى أنوارَ كعبةِ ربّهِ
وسباهُ طابعها الوضيءُ المُشرقُ
كشف القميص عن الضلوعِ..وراعهمْ
رجلا يشدّ ثيابه ويمزّقُ
في صدره نار، يشدّ أصابعا
من حولها وهو الكسير المرهقُ
الوجه كالليمونِ ، حالُ مودّعٍ
والجفن من فوق البآبئ أزرقُ
رقّت جموع الطائفين لحالهِ
وتأمّلوا حالَ الضعيفِ وأشفقوا
لكأنهم سمعوا تشقَّقَ حائطٍ
في صدرهِ، أو كالحريق يطقطقُ

فتيبّسوا في دهشة وتوقفوا
ولكي يمرّ تباعدوا وتفرّقوا
ألقى لها جسدا ينوء بحملهِ
تعَبا، وعانقَها يبوسُ ويشهقُ

-1

مشفقين عليه ، ذارفين ، تحمّلوه بعد أن أغمي عليه ..ولم يفـق إلا وجمـع مـن النـاس يرشّـون وجهه بالماء ، ورجُل منهم يسـأله عمـا أصـابه ، فيجيب:

شيءٌ..أحاولُ شرحَهُ..لا أعرفُ
قلبي يكادُ بأضلعي يتوقّفُ
وأنا أحسّ به لأول مرةٍ
شيءٌ كحبّة سكّر.. لا يوصفُ

لمّا رأت عيني حجارة مكةٍ
وبدا لعينيَّ البناءُ الأشرفُ
وأنا رقيق القلبِ ، سهلُ دموعهِ
طفلُ الشعور، العاطفيُّ، المرهفُ
لم أبكِ.. لكنْ قد شعرتُ بقطرةٍ
في الخدّ قد نزلتْ..وعيني ترجفُ
فوقفتُ كالتمثالِ ، أمسك دهشتي
متجمّدا لدقائقٍ لا أطرفُ
هذا أنا .. طبعي رقيقٌ هكذا
مِن ربّنا خَلْقا ..ولا أتكلّفُ
ولأنني أدري بأني لا أفي
بالوعد في أمر البكا.. لا أحلفُ
وأقولُ نتركُ كلَّ ذاك لوقتهِ
وإذا أتى ميعاد ذلكَ .. أذرفُ

obeikandl.com

الحلقة الرابعة عشرة

-1

حينما وجّه الركبانُ عيرهم نحو طيبة الطيّبة ، لم يكنْ أهل هذا الحيّ وقد اصطحبوا الساعر معهم لِما رأوا من ضعفه ، يعرفونَ أنّ خبرَ التي خرج باحثا عنها سيهدّه ، ويبلغ به في الجنون مبالغ..وقد قالوا إنّ الفتاة تعيش مع أخوالها في بادية (مروج الياسمين) ..جنوبا جنوبا إلى أقصى ما يحتمله الجنوب ، في مسيرة شهرين ..

هم ربّما ظنوا الفتى مجنونا
أو ربّما بالأمر لا يدرونَ
أنّ الفتى يحيا بحبّ ضائعٍ
يبقيه في أضلاعه مدفونا

لم يعلموا إذ أخبروه بأنهمْ
عصروا على جرح الهوى الليمونا
ثارت جهنّمُ في الضلوع تهزّهُ
حسبوه مِن أوجاعهِ مطعونا
شدَّ الثياب على الضلوع بقوةٍ
نادى : (دخيل اللّه فلتسقونا)
قالت عجوزٌ في النساء حكيمةٌ
اسقوه ماءً، ارحموا المسكينا
هذا الفتى يهوى، أقصّ ضفيرتي
إن لم يكنْ بجميلةٍ مفتونا
والأمرُ يبدو واضحا مِن نظرةٍ
ومؤكَّدا لا يقبل التخمينا

-2

طول الطريق إلى المدينة كان صامتا ، وقد سبقه قلبه إلى بادية (مروج الياسمين) ،وكادت مضارب الحي تبدو له ، بل كادت الفتاة تظهر له حاملة قربة الماء تسير مع صويحبات لها نحو النبع ..ولعل واردا من الأفكار لعاشق يترصدها في الطريق يبادلها البسمات الخفية والنظرات الخاطفة قد أثار غيرته ، فاهتمّ وتعكّر وازداد ضعفا إلى ضعف..لكنّه رغم كل ذلك كان يحس بتقصيره وهو يقترب مِن عطور المدينة المنورة وأنوارها..فتتحرك شفاهه بالقرآن والاستغفار..معترفا بضعفه وبدائه وبقلبه الذي تطوّح به الرياح في الفجاج الواسعة..

بين اصطدام الموجِ بالنيرانِ
وظهور بعض الدمع في الأجفانِ
كان الفتى العذريُّ يذكرُ ربّهُ
ويحرّكُ الشفتين بالقرآنِ
طولَ الطريق إلى المدينةِ لم يقلْ
شيئا ، سوى (أشتاق للعدنانِ)
سمعوه يهمسُ :(هل سأبلغُ غايتي؟)
ويردّ كالمجنونِ: (ما أدراني؟
أنا قشةٌ في الريحِ، تَتْبَعُ قلبها
ما قشة في الريح في الميزانِ؟
للّه أمري ، من أنا لأُجيبني ؟
وأنا بأمر الواحد الديّانِ
وإذا رثى أهل القلوب لحالتي
فاللّه ربّ الناس لا ينساني)

ويعودُ يمسحُ في العباءة عينهُ

ويشدّ بالفكين والأسنانِ

والناقة العجماء تعرف أنّه (...)

لكنَّ ميلَ النوقِ للكتمانِ

-3

كانت إشارة بلوغ المدينة ميْدُ الناس واهتزاز قلوبهم ..وفي المسجد النبويّ قاب زهرة ونبضتين أو أدنى مِن قبر الحبيب صلى اللّه عليه وسلم ، تعلّم الساعر من شيخ جليل أنّ الحبّ خطوٌ خلف خطو، انقيادا..

لاحَ الحبيبُ لعاشقيه،فمادوا

لحظاتُ لُقيا المشتهى أعيادُ

الكلّ يحمل في يديه إناءهُ
ويمدّ يملأُ، كلّهم وُرّادُ
والمسجد النبويُّ دمعةُ تائبٍ
والذّكرُ والركْعاتُ والأورادُ
لما رأى ذاك المكان تمايلتْ
خيماتهُ وارتجّت الأوتادُ
ما كان يعرفُ أنّ نار حبيبهِ
عند اللقاء به هنا تزدادُ
أفتاه شيخٌ زاهدٌ: (يا صاحبي
عُشّاقه بلغوا المنى أو كادوا
ليسَ المحبةُ أن تمسّحَ قبرهُ
بيدٍ تُكذّبُ عشقَها الأعوادُ
إنّ المحبةَ حين ترجفُ واقفا
وتذوبُ فيك بِصَمْتِكَ الأكبادُ

وتسيرُ خلفَ خطاهُ..تتبعُ ظلهُ

خطو المُحبّ لحِبّه مُنقادُ

ولَذاك ما نقلَ الرواة وعنعنوا

ومضى على منهاجهِ العُبّادُ)

مسح الدموع مطأطئا ، ما قولُه

إن قيل: يا العذريُّ أين الزادُ ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الخامسة عشرة

مسيرةُ شهرين تفصل الساعر عن (مروج الياسمين) ، دار (قدسى) ، والشهران في قلب مشتاق حولان، بل قرنان، بل عمران ..فمن أين يجيء ذو العمر الواحد بعمر ثان ؟
حين اهتزت به ناقته نحو أقصى ما يحتمل الجنوب من معنى ، كانت عيناه على الآفاق تحلقان كصقرين صحراويين..

شهران والشهران للعشّاقِ
قرنانِ من نار ومن أشواقِ
شدّ الرحال إلى الجنوب ،لحيّها
رغم الذي يُعييه من إرهاقِ

قلبُ المُحبّ حصانُ شوقٍ ظامئٌ
في الحرّ يلهثُ نحو أرض الساقي
كان الفتى بالهمس يذكر ربّهُ
وعيونهُ صقران في الآفاقِ
يدري بأنّ عليه أن يسعى لها
وعلى مُلاقي الغائبينَ الباقي

كانت الأفكار تحوم كسنونوات برأس الشاعر،تدنو تلامسه بجناحيها ثم تنأى لتعود..يتخيّل لقاء (قدسى) ويعيشه قبل أوانه .. وبينه وبين ذلك شهران ..واهتزّ صوته المجلجل ترددده الجبال الرمادية القريبة..

شهرانِ يا (قُدسى) هما شهرانِ
شهر سيمضي ، ثمّ يأتي الثاني

وأكون عندكِ ..وعدُ حرّ صادقٍ

إن شاءَ مُنزلُ سورة الرحمنِ

سيجيء يجري نحو بيتكِ مسرعا

جمعٌ من الفتيات والصبيانِ

كي يخبروكِ بأنّ شخصا قد أتى

للحيّ يسألُ عنكِ في النسوانِ

ويقول إنكما... يقول نشأتُما

كأشدّ ما في القُرب كان اثنانِ

وستركضين بلا حذاء ،ربّما

وبدون وضع الكحل في الأجفانِ

ماذا سنفعل حينها وعيوننا

فيها من الأشواق كالطوفانِ ؟

لم يقطع عن الشاعر أفكارَه غيرُ خيام تلوح في سفح ، أعلاها زرقة السماء وأسفلها وهم السراب

متشبها بالماء وما هو بماء.. ولا يدري لمَ تذكّر لحظتئذ صورة السوبان عند زهير بن أبي سلمى.. هذه إذن مضارب (قبيلة ذات أشواك) .. بكل ما انتشر في القبائل من أخبارها العجيبة ، التي تجعلها تقدّم الشوك على الزهر والدمامة على الجمال والجفاف على الريّ ..ملكات حسنها الدميمات وعلماؤها الجهلة ، وحكماؤها المجانين..وقد حطّ بها الساعر رحله متوجسا خيفة ورأى من العجائب ما يذهب بالعقول..

أمرٌ يشيّبُ هولُه الأطفالا
ويجنّنُ الحكماء والعقّالا
رجُل يغازلُ بالهجاءِ، صبيّةً
لبستْ مكان سوارها خلخالا

والسبتُ يأتي في الخميسِ ، وصبحهمْ
عند المساء إلى الدجى إن طالا
قومٌ إذا صمتَ المخاطِب أنصتوا
وإذا تكلّم أظهروا الإهمالا
يستبشرون بمن يموت، وعندهم
ميلاد شخصٍ ساء فيهم فالا
وسجينهمْ حرّ طليقٌ بينهمْ
والحرّ يسحب خلفه الأغلالا
مفتي القبيلةِ في المشايخِ شرّهم
وفصيحها رطّانها إن قالا
باقاتهم شوكٌ، وكحلُ نسائهمْ
لون البياض ، وصلبهم ما سالا

ولعل من سوء حظ الساعر ،أو من حسن حظـه ،أن يصادفَ مجيئه القبيلةَ يوم اختيارها لملكة حسنها

التي بها يتغنى شعراؤها، وبها تفض خصومات الحي ،وعليها يتقاتل الفرسان خِطبة وزواجا..وقد أكرمَ المضيفونَ ضيفهم بأن أشركوه في اختيار من تصلح لتاج الحسن وريشة المُلك..وكان له رأي عندهم غريب ،غرابة آرائهم عنده..

في ساحةٍ محروسةِ الأسوار
ومضاءةٍ بمشاعلٍ من نار
جالت عيونٌ في الملامح ساعةً
وتوقفتْ في الكحل والأزرار
عشرون أنثى ناظرات للثرى
صُفّتْ كصفّ الشَّعر في الأشفار
واختيرَ منها بالنقاش صبيةٌ
مجنونةٌ وغريبة الأطوار

لا طول يعجبُ، لا حواجب تُشتهى
في الشكل تشبهُ نبتة الصبّار
صاح الذي عرفَ الجمالَ مؤصلا
في الرسم ، في التاريخ، في الأشعار:
((أوَهكذا أمرُ الجمال بحيّكم؟
ماذا بكم يا ناسُ؟يا للعار
إنّ الجمال قناعة شخصيةٌ
بالذوق، لا بالقمع والإجبار))
وأشار نحو صبية خَمريةٍ
تلقي من العينين مثل النار
بستانُ ألوان يزيّن ثوبها
وعطورها حقلٌ من النوار
قال: ((الأميرةُ هذه لا غيرها
ما غير هذي هزّ لي أوتاري

ولكُمْ أميرتكمْ..ولي خمريّتي

وأنا سأعذركم ..ولي أعذاري))

فتبسّمتْ بدلالها وتمايلتْ

كتمايل الأزهار في آذار

هل يستطيع الساعر تغيير ذوق الناس في هذا الحي، ليكون الجميل عندهم جميلا ..؟أم أنهم سيدافعون عن عقيدة الشوك فيهم ، ما يجعل الساعر يدفع ثمن كفره بعرفهم وزرع بذور فتنة الجمال بينهم ؟ ذلك ما سنراه في الحلقة القادمة..إن شاء رب العالمين..

obeikandl.com

الحلقة : السادسة عشرة

لم يكن قليلا ولا هيّنا ما نقضَ به الساعرُ غزْل القوم وأزرى بحكمهم به حين اختار صبية خمرية مغمورة على من أمّروها هم واختاروها..وقد رجف المجلس لذلك رجفة شقّته جمعين..جمع منتفع من القبح مستمرئ بقاءه ، وآخر وجد في كلام الساعر ما يشبه الأزهار ورقرقة الماء في السواقي وشقشقة العصافير، وروعة ألوان (قوس اللّه) في تداخل قطرات المطر الرقيق بسنا خيوط الشمس..فآمن به أو كاد..

ذُهل الجميعُ.. ومَن يخالفُ يُذهِلُ
مادوا كأغصان الخريف وزُلزلوا

جوا، ودبت في (الأميرة) رجفةٌ
مالت إلى إحدى الجواري تسألُ
قالت لها : باللّه من هذا الذي
يبدو عليه بأنه لا يخجلُ
يتجاوز المعروف من قانوننا
وبغير من نختارها يتغزّلُ ؟
لو لم يكن ضيفا لدينا ، كان لي
في الأمر حكمٌ صارمٌ مستعجلُ
ومُعارضُ (الوضع القديم) بحيّنا
وكما جميعُ الحيّ يدري، يُقتلُ
فتكلّمي ،هيّا ،أشيري ، انطقي
قولي، برأيكِ أنت،ماذا نفعلُ؟

ولعلّ الساعر قد أدرك على وجوه القوم ما أحدثه فيهم من ارتباك ،وما تبسّمت به عيون الذين

يسرون مثل ما يظهر هو من رأي، فأراد أن يطـرق الحديد ساخنا، فشدّ ذيل عمامتـه يعصـره بيمينـه مرتجلا :

سأقول ما في بالكم لا يَخطرُ:
ما أنتمو فيه ابتلاءٌ أكبرُ
ماذا سيبقى مِن حياةِ قلوبكمْ
إن أصبحتْ حجريةً لا تَشعرُ ؟
مَن لم تُذبهُ صبيّةٌ بجفونها
في عُرفِ أشياخ الهوى لا يُعذرُ
مَن لمْ يغمّض عينهُ من دهشةٍ
ليشمَّ مَن مرّت به تتبخترُ
من لم تزلزلْ قلبهُ خَمريّةٌ
مَن لم يجنّنهُ المحيّا المقمرُ

مَن إنْ تقاطعَ في الطريقِ بـ(زينبٍ)
(كالملح فوق الجرح)، لا يتأثرُ
مَن لم تحرّكه العطور زجاجةً
مثل البنفسج فوق كفّ تقطرُ
مَنْ إنْ رأى كحلا تماسك واقفا
والأصلُ أن يهوي ،وذاك الأجدرُ
مَن إن رأى أنثى تميسُ بقدّها
لم يدر كيف بثوبه يتعثرُ
مَن لم يقم في الليل يشعل شمعةً
ليرى رسائلها ..ومن لا يسهرُ
مَن كان يجهل كيف تبقى وردةٌ
يبست بدفتر طالبٍ يتذكّرُ
مَن لمْ يكنْ منكم حديقةَ سوسنٍ
فهو البئيسُ المقفرُ المتصحّرُ

ولعلّ كلام الساعر قد سرى كنسغ النبات في الرقيقات من النساء وفي الفرسان طبيعة من الرجال ..فكان أن عبّر البعض وابتسم الكثيرون من عيونهم ..

صرخت نساءٌ: ((ما ألذّ كلامهُ
فوق الجنون ، وفوق ما يُتصوّرُ
فكأنه بالجهر يقرأ سرّنا
وكأنّهُ عمّا نحسُّ يعبّرُ
يا ليتهُ كان الأميرَ بحيّنا
(سيردّ فينا الروح) لو يتأمرُّ

وما كان لخمرية حازت إعجاب وثناء الساعر أن تكتم في قلبها غيرتها وهي ترى من كلام النساء ما يشعل في قلبها أعواد السرو..

فتبسمت تلك التي غازلتها
وهي التي حين التبسّم تسحرُ
قالت: أغارُ عليهِ، لا تُغضِبنني
فلربّما من غيرتي أتهوّرُ
هزّت حواجبها لهنّ ، وهزهزتْ
سبّابة الحنّاء هزّا تنذرُ
احذرنَ ، قالتْ، لست ألعبُ في الهوى
وأنا أقولُ هويته لا أنكرُ
لم يُبق مني غير ما يبقي الذي
ظماً يُجرجمُ ([11])في الإناء ويزفرُ
والقلبُ فوق النار يشبه قطرةً
للماء تغلي، بعدها تتبخّرُ

[11] - جرجمَ ، يجرجم، الماء : شربه كله..

obeikandl.com

ولعلمكنّ أنا هنا جدّيّةٌ

ولأجله – صدقنني- لا أغفرُ

فبه استعدتُ إمارتي وتميّزي

وبه شعرتُ بمرج قلبي يُزهرُ

فتغامزت بعض العيون لقولها

هي رغم ما فعلتْ وقالتْ تعذرُ

يدرينَ أنّ صبيةً بجمالِ مَن

تُدعى (زليخا)، إنْ أحبّت تمكرُ.

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة السابعة عشرة

حين كان الساعر يحزم متاعه على ظهر ناقته مغادرا ، كان أكثر من نصف أهل قبيلة (ذات أشواك) يحزمون متاعهم كذلك مفارقين لهذا الحي الذي أذهبوا في شوكه نصف أعمارهم ،قبل أن يقرروا الارتحال عنه لتأسيس قبيلة (ذات ورود) التي استقر يقينهم على أن يجعلوها واحة للجمال والورد والمحبة.. وتمايلت بالقوم نوقهم شمالا حيث سفح الجبل الأبيض، بينما سار الساعر جنوبا.. وكان الكحل ينزل مبللا في هوادج الخمرية وصويحباتها ممن لمّعهنّ شعر الساعر كخواتم من ذهب علاها غبار الإهمال والتضييق زمنا..وبين الخمرية وبينهنّ أن تخفي تتصبّر،ويُظهرن جزعا..

نأتِ الهوادجُ إذ نأت بالأدمع
كم في الوداع المرّ من مُتوجّع
كل النساء شكرنه وبكينهُ
ليغيبَ كالنجم الخفيفِ المسرع
يعرفنَ لا ينفينَ فضلَ ظهورهِ
مَن هنّ لو في لحظةٍ لم يسطع؟
أمّا التي وُلدتْ بحِجر قصيدةٍ
فكأنها لفراقه لم تجزع
ضغطت على أضراسها ، وتوجعتْ
أخفتْ سيول دموعها بالبرقع
لو أنّ سيدة رأتها هكذا
من دون كلّ الناس لم تتوجع
لتحدثت بين المجالس: ((إنها
لم تهوَهُ من قلبها، بل تدعي))

ما عندها حقٌّ، فكم من أنهرٍ
تجري وإنْ جرَيانُها لم يُسمَعِ
فتحت فمًا ،قالت تداوي نفسها
بصدى يزلزل قلبها مِن مقطعِ:
((هذي الأميرةُ هذه لا غيرها))
همستْ: (سلامي للرقيق الأروعِ)

لم يعرف الساعر كيف مضت عليه خمسة أيام في سباسب مفازات تنقطع فيها رقاب الإبل وتنشف فيها أكبادها، قبل أن يبلغ هذا الحيّ الذي سيجد فيه من المفاجآت ما يكاد يذهب بعقله..وقد وصل الساعر ظهرا وللصحراء ظهرا ما تشوي به الجلود وتنهك به الأجساد من لفح قيظها..وقد مدّت له صبية من خلال فتحة في خيمة إناء حليب وهي تقولها بصوتها الناعم (.. أيها الساعر) ، واتسعت

عيناه للمفاجأة..كما ستدور به الأرض لمفاجأة أكبر..وكم في آنية الحليب في بوادي العرب من مفاجآت..

شربَ الحليبَ..ووجههُ يتصبّبُ
عرَقا..يمسّح وجنتيه ويشربُ
ورأى بقعر الطاسِ خاتم فضةٍ
في فصهِ نقشٌ يلوح ويعجبُ
وعليه (ليلى العامريةُ) ، هزّهُ
هول المفاجأةِ الشديدُ الأغربُ
وهو الذي يدري بقصة خاتمٍ
باقٍ لليلى ..والكثير يكذّبُ
من عادة النسوان في أحيائها
دسّ الخواتم أو رسائل تُكتبُ

كـان عليـه أن يشـكرها وهـو يعيـد إليهـا الإنـاء بخاتمه..لكنّ نار فضوله لـم تعفـه مـن أن يسـألها وقد عصفت برأسه رياح ورياح..

شكرا لما قدّمت لي مِن لازمٍ
وكذاكَ دأبُ كرامنا من (حاتمٍ)
لكنّ غيمكِ يا صبيّةُ مثقلٌ
بالسرّ كالطقس الثقيلِ الغائمٍ
من خاتمٍ ، ومِنِ اسمٍ ليلى فوقهُ
حرّكت بي بعضَ الفضول النائمٍ
مَن أنت ، عفوا ، يا رقيقة همسها
من أنت يا ذات الكلام النّاعمِ ؟
دوّختني ..قولي ..رجاءً..أفصحي
مَن أنتِ؟ ما أسرار هذا الخاتمِ ؟

اســتمعت إليــه ، وأرخــت علــى فتحــة مطلّهــا ساترا،وشهقت باكية دون أن تجيب ..

وكأنها خوفا تفرّ بسرّها
ألقت بإبرة سرّها في بحرها
لمْ تعطهِ رأسا لخيطٍ ..سلّمتْ
شهقتْ ،وأغلقت المَطلّ بخدرها
زاد اشتعال الأمر في أضلاعه
وازداد شكّا متعِبا في أمرها
كم قد تمنّى لو تدلى هكذا
كالفصّ في عِقد لها في نحرها
ليكون أقربَ حيث تكتم سرها
في علبةٍ بين الضلوعِ بصدرها
فلعله بالقرب يكشف أمرها
كشْفًا، ويدري خيرَها من شرّها

كانت دهشة الساعر بدهشة من أنبـئ بمسـتحيل ..وقد أنبأه بعض أهل الحـيّ أنّ هـذه هـي حفيـدة (ليلى العامرية) مجنّنةِ قيس ، فطار ما كان متبقيا في رأسه من أسراب للعقل على أغصـان الهـدوء.. وذهبت به أفكاره كل مذهب..

هذي إذن..بنت التي جارت على
(قيسٍ) أخي ، وصديقيَ المجنونِ
هذي حفيدتها ، بقيّةُ نارها
مَن لا تبوح بسرّها المكنونِ
هذي التي ذكروا خطير عيونها
في العاشقينَ ، بسنّها العشرينِ
ورثتْ علومَ الفتكِ ، تحفظ جيدا
نظرات جدّتها إلى مفتونِ

فإذا رمتْ سهما أصابت صيدها
وتبسّمت بدهائها الملعونِ
رحمَ الرحيمُ العامريَّ ، أظنني
سأكونهُ ، في الشكل والمضمونِ
أنا لم أكن أدري بأنّ صبيةً
ستصيبني في القلب في خمسيني
وبنات ليلى إن بعثنَ بخاتمٍ
لرقيق قلبٍ هامس : (اسقوني)
أتعبنه بين الصحارى لاهثا
يجري يشدّ الصدر كالمطعونِ

هل سيراها ليرى من خلالها جدتها التي ذهبت بعقل صديقه المجنون (قيس بن الملوّح) ؟ أم ترى رؤيتها ستكون حلما ، وقد قيل له إن أهلها لا

يطلقونها من قفصها إلا نادرا خوفا منها على قلوب وعقول رجال الحي؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثامنة عشرة

لم يكن فضول الساعر لرؤية حفيدة ليلى امتحانا لجمال ليلى ، لكنه كان امتحانا لذوق قيس بن الملوّح ، فأيّ جمال هذا الذي يمكن أن يذهب بعقل شاعر كمجنون عامر ؟

كان كلما طلع على الساعر صبح ليوم جديد يقول: (عساها اليوم تظهر) ، لكنها لا تظهر.. ليبقى مترقبا في حيها طيلة أسبوع ،تجاذبه فيه حبل (قدسى) التي تستعجل رحيله إليها، وحبل حفيدة ليلى التي يستبقيه فضوله ليراها ، وليرى من خلالها قصة المجنون وأعذاره في جنونه وتيهه في الصحارى عمرا..وجاء يوم ليرى امرأة إنسية استثنائية جاذبيتها أكبر من جاذبية الأرض..

قمرا أطلّتْ..تشبه (الغِزْلا...)..لا
هي طفرةٌ لا تَقبلُ الأمثالا
لما رآها أقبلت بغرورها
طيفا جميلا ذائبا مختالا
نسيَ العلومَ وجاذبية أرضنا
(لا جاذبية غير (هذي))، قالا
مترنّحا بالحُسنِ ،حاولَ أنْ(...)فلمْ(...)
فقدَ التوازنَ فانحنى أو مالا
(ما هذه ؟).. ضربَ الجبين بكفّهِ:
(أنا في حياتي لم أرَ الزلزالا
تبّا لها ..والشّرعُ جوّزَ حبسها
طبعا..أيتركها تُسيءُ الحالا ؟
لو كنتُ شيخا في قبيلتها لما
وسّعتُ عن أكواعها الأغلالا

سبحانَ خالِقها..تقصّرُ عُمْرَ مَنْ
يُبلى بها ، وتعجّل الآجالا
فكأنها بالمشي تَرقصُ نشوةً
ولضبط ذلكَ تضربُ الخلخالا
لو كنتُ شاعرَ وصفِ جسمٍ قلتُ ما
مِن وصفها (سيُعفرتُ) الأطفالا
لكنّني أخشى الإلهَ ، وليس لي
غير العيون ووصفها ، إجمالا
عينا البنيّةِ جنحتان ، ورمشها
تبا له متآمرا قتّالا
الآن أفهمُ كيف ضيّعَ عمرَهُ
قيسٌ، وطلّقَ بعدها الآمالا)

لم يكن من الحكمة أن يبقى الساعر في حيّ امرأة تذهب نصف عقل الناظر إليها لمرة ، كان من

الحكمة أن يهرّب نصف عقله الباقي، لئلا يكون مجنونها كما كان العامريُّ رحمه اللّه مجنون جدتها رحمها اللّه ..لذلك، ومن ساعته تلك ، شدّ متاعه وحزم حباله وطلب الجنوب محوقلا ..وما إن نآى قليلا حتى راودته نفسه في العودة ، وهل كجوار ليلى الصغرى جوار؟ وتنازعه الإقدام والإحجام..بين أن يعود وأن يستمرّ جنوبا..

أتُرى يعود؟ ..وويحه إن عادا
مَن عادَ دمّر نفسه أو كادا
أيعود مَن نَقَضَ الخيام مودّعا
واستلّ من تحت الثرى الأوتادا ؟
ولِمن يعودُ ؟ أَلِلّتي أمآقُها
رغم البراءةِ تفسد الأولادا ؟

وتجنّنُ المجنونَ ضِعف جنونهِ
وبطَرْف جفنٍ تُتعبُ العُبّادا
وتزيد من مرض المريض بنظرةٍ
وتسبّبُ الإرهاق والإجهادا
هو لن يعودَ ..فقط سيدعو ربّهُ
نسيانها، وسيقرأ الأورادا

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة التاسعة عشرة

هذا مساء الصحراء ..ينزلق قرص الشمس كحبة برتقال نحو الأفق البعيد المغبّش..الهدوء الآسر،والحمرة المشوبة بصفرة ، في لوحة تختلط فيها أشعة الشمس بألوان الرمل والجبال الصخرية المائلة نحو الحمرة..

في تلك الساعة من ذلك المساء كان الساعر ضيفا على قبيلة كثيرة الخيام ..ترعى على أطرافها قطعان كبيرة من الإبل والأغنام..وتتعالى من بين بيوت الشعر فيها قامات من الدخان لنساء يحضّرن عشاءهنّ.. في لوحة مسائية تذيب القلوب..

على صخرة ملساء متآكلة من أثر الريح والمطر،كان هناك ظلان ينكشان الأرض بعودين

ويتبادلان الحزن.. فتى في مقتبل العمر، وشاعر هو الساعر .. ولم يكن الفتى غير وحيدِ أرملة فقيرة ، وقد أحبّ ابنة أحد وجهاء القبيلة أعواما،ألصقها فيها من قلبه حيث لا تنفك ، لكنّها بدلت عهدها وغيّرت وجهتها ، وهاهي تقبل بغيره خاطبا، بينما يتجرع هو مرارة أحزانه، وما فيه من عيب غير قلة ذات يده وضعف ريحه ونصيره..فما الذي يبقى من امرأة وذكراها ، من أساورها وعنبرها بعد الطعنة النجلاء؟ ولعلّ الساعر قد أحسّ بما في عيون الفتى نحو الحياة من سواد،فلم يخالفه ، واهتز يقول :

ماالحبّ ؟ ماالأزهارُ ؟ ماالنسوانُ ؟
والحسنُ ما ؟ والقدّ ما ؟ والبانُ ؟

ما قرطُها؟ والعقد ما ؟ وسوارها
ماذا ؟ وما (الدنتيلُ) و(الساتانُ) ؟
والعطرُ ما ؟ ماذا يساوي طيفها؟
ما الكحل ؟ ما الأشفارُ؟ ما الأجفانُ؟
ما الشمع ؟ ما سهَر الليالي بالبُكا؟
والصبرُ ما؟ والخوف والكتمانُ ؟
ما كلّ ذلك عند مَن في قلبهِ
بعد الهوى من غدرها برهانُ ؟
عند الذي طعنتهُ أنثى عُمرهِ
هذي الأمور جميعها بهتانُ

وقد حفرت تلك الكلمات قلب الفتى فانتشى فيه حزنه وعرّش ، وانطلق لسانه متحسرا :
لا سامح اللّه التي في لحظةٍ
تنسى الذي سيلفُّه النسيانُ

للغير بسمةُ ثغرها ودلالُها
وكلامها، وجمالها الفتّانُ
وله جهاز العرس في صندوقها
وله حرير الثوب، والكتّانُ
وله فصوص العقدِ، كلُّ حليّها
وله الجمال المُتعَب السهرانُ ؟
أما أنا فمسافرٌ في قلبها
لي أمنيات الريح ، والنيرانُ
لي قبر حبّ في الزمانِ أزورهُ
وعواطفٌ من حولها أكفانُ
ستعيش حلمَ حياتها من بعدنا
وليَ الرحيمُ المحسنُ الحنّانُ
أفراح قلبي بعدها أحزانهُ
وحبيبهُ من بعدها الحرمانُ

obeikandl.com

سقطت دمعةٌ من عين الساعر ..سقطت وهو يتذكّر جرحا قديما ظن السنين قد أذهبت كل أثر له ، لكنه الآن يدرك غير ذلك ..لذلك هو يبكي نفسه ماضيا ، ويبكي هذا الفتى الفقير الضعيف حاضرا ، وسيبكي كلّ مَن قصُرت به يده عن إمساك نجمة أشعلت حشاشته ثمّ اختارت بعده ما ينسجم مع طينة العبيد الذين يختارون لأعناقهم قيود الذهب والفضة على عقود الياسمين..وارتجل الساعر:

قد كان يا مُتوجّعا ما كانا
ماذا يفيدُكَ ما تقول الآنا ؟
هذا أذانُ (الهَجْر) ، أذّنَ فاغتسلْ
وقتُ الجنازةِ في الهوى قد حانا

واستغفر اللّهَ العظيمَ، فمِثلُها
في الأصل لا يستأهل الأحزانا
باعتكَ ، بِعْها، سِعرُها من غدرها
فانظر لحالك، والعنِ الشيطانا

بانكسار يشقّ الصخر ، رفع الفتى عينين ذابلتين إلى الساعر وهو يقول : ماذا عليّ أن أفعل يا عماه؟ فيردّ الساعر:

لا ، لستَ وحدكَ، قبلكَ الآلافُ
ومِن الذينَ تستّروا أضعافُ
فلتنسَها ، فدواؤها نسيانها
هي هكذا يا صاحبي الأعرافُ
أوصِ الحجيجَ – إذا تعبتَ- بدعوةٍ
في السعي، أو في النحر، أو إنْ طافوا

ستحسّ بعد العام ضُعفَ شِباكها
وتَخفُّ في أحلامكَ الأطيافُ
كنْ مثل من ذاقوا الذي قد ذقتَهُ
فرموا كؤوس من اعتدى أو عافوا
وإذا مررت بها بدرب ، لا تقفْ
أردا ([12]) مجاريح الهوى الوقّافُ
ما في الهوى – فاحفظْ- فقيرٌ بائسٌ
يقتات بالأعشابِ، أو أشرافُ
الحبّ يا ولدي برأيي وردةٌ
لا يهتدي لجمالها الأجلافُ
وأشدّ بلوى الوردِ في علمي أنا
- واللّه أعلمُ- غادرٌ قطّافُ

[12] - أردا : أردأ، من الرداءة ..

obeikandl.com

الحلقة العشرون

قبيلة بعد قبيلة ..وحيا بعد حيّ..والحالّ المرتحل،ينقض متاعه ثم يطويه ، يربطه تارة ويفكّه أخرى..يُحمي الشوقُ قلبه ، وتدفعه ريح أحلامه جنوبا ..

وهاهو اليوم ينزل على حيّ آخر ، أضربت نساؤه عما هو معروف عند النساء عادة من التعلق والارتباط ، فقد أجمعن أمرهنّ على تجميد عواطفهنّ ووأد نبضات قلوبهن ، مستنكرات ما آلت إليه حال الذكران في تلك القبيلة من الهوان والذل، تارة لفارس التي يدفعون لها الخمس وزيادة وتارة للروم التي تصبّحهم بغاراتها وتمسيهم دون أن يرفعوا في وجهها سيفا ولا حتى صوتا..وحين تموت الرجولة يموت الإعجاب

والحب، تماما كما هو الأمر حين تموت الأنوثة وتفقد المرأة رقتها وذوقها..
وقد اشتكى رجال القبيلة للساعر ، فاستوقفَ سيّدةَ النساء في الطريق يسألها:

(هل تسمحينَ دقيقةً بسؤالِ
يا ربة الأقراطِ والخلخالِ ؟)
نظرتْ إليّ بجانب من عينها
وتفرّست لدقيقة في حالي
قالتْ أظنكَ ضيفَنا ، شرّفتنا
يا ساعرَ الأسفار والترحالِ
لو كان مثلكَ في الوفاءِ رجالُنا
لتعلّقت نسواننا ، يا غالِ
لجثت صبايا الحيّ يجمعن الثرى
من تحت أرجلهمْ من الإجلالِ

أوراقنا سقطتْ ، تخرّفَ فصلها
وقلوبنا يبستْ من الإهمالِ
من سوف نعشقُ؟ هل نحبّ أرانبا
مكسورة الأذنينِ بالإذلالِ ؟
لو أنني يوما وقعت سبيّةً
ما قام يطلبني سوى أخوالي
فلأي سيفٍ لابن عمّ يا ترى
فخرا أغنّي أو أُرَيّحُ بالي ؟
دعها لربّكَ، فالقلوب مليئةٌ
والأمر يدعو – الحقُّ-([13]) للإخجالِ

[13] - من الحق الأولى المضمومة في قوله تعالى : (فالحقُّ والحقَّ أقول)، أي والأمر يدعو – حقيقة- للإخجال.

وأطـــرق الســـاعر لكلامهـــا ، فلـــم يجـــد مـــا يقول،لتضـيف هـي وقـد أحسـت بمـا فعلتـه فيـه كلماتها:

مَن سوف نَعشقُ ؟ كلُّنا نسوانُ
ذهبَ الرجالُ، تغيّروا، أو خانوا
لا يغررنكَّ شاربٌ أو بذلةٌ
بعد الرجولة هم فقطْ ذُكرانُ
فلمن نمشّطُ في المساء شعورَنا
ولمنْ يكون العطرُ والألوانُ ؟
ولمنْ نلوّح في النوافذ خلسةً
ولمنْ ستهمس عندنا الجدرانُ ؟
ولمنْ نبخّرُ بالغناء ثيابنا
وبمن يوسوس في الدجى الشيطانُ ؟

والبنتُ يفتنها مجنّنُ عقلها
صعبُ المراسِ، الفارسُ ، الفتّانُ
إن لم تجِدْ قَصّتْ ضفائر شَعرها
وتجرّدت من كُحلها الأجفانُ
ورمتْ لموقدها رسائلَ حبّها
وتسلّقت أضلاعَها النيرانُ
وتوقفت عن مضغ علكتها التي
تهوى، وأقنعَ قلبَها النسيانُ
ما قهوةُ العصر التي ألفتْ وما ؟
ساقٌ على ساقٍ؟ وما الفنجانُ؟
فلمن سنكتبُ؟ من نحبّ ؟ (رجالُنا)
أمسَوْا سرابا ما لهم عنوانُ

..قالت ذلك ومضت تمسح دموعها ..وفي الخيام نساء سمعن كلامها فمسحن دموعهن ..وبقي هو

واقفا كحجر ، لا يلوي على شيء سوى الرحيل عن حي يسيء فيه إلى الحرّ جوار من لا يفدي وردة ولا يعزّ غزالة..محطما مشى إلى ناقته يحتمل مرتحلا ، دون أن ينبس بابنة شفة..وبعض الكلام في غير أهله نفخ للرماد..

obeikandl.com

الحلقة الحادية والعشرون

على عكس قبيلة بني عذرة التي سيحلّ بها الساعر قريبا ، لم يكن من عادة رجال قبيلة (بني عامر) التي نزل بها الآن ، التصريح بما في قلوبهم ..لذلك تعيش النساء في هذه القبيلة يابسات محرومات من الغزل الرقيق والثناء على الخُلق والخَلق ، مما تُسر له النسوان عادة ..

ولعلّ ابنة سيّد قومه ، كانت أشدّ نكبة في ذلك،فلمكانتها يهابها الرجال ، ولا يجرؤون على وصف شعرة في رمشها أو رنة في خلخالها .. لذلك تفاجأت بالساعر وهو يستوقفها في الطريق مبديا إعجابه من جمالها ..وبقدر دهشتها كانت سعادتها..فأخيرا قابلت مَن تجاوز هالة الهيبة إلى سر الأنوثة وما تقتضيه من حلو الكلام ..قال

الساعر وهو يبدي دهشته أمام جمالها، هو الضعيف الذي لا يكتم دهشة ولا يستر جنونا حتى لو أودى ذلك بحياته :

أنا آسف جدّا على الإزعاجِ
يا من تغطّي شَعرها بالتاجِ
يا مَن لبستِ عباءةً جوخيةً
وأضفتِ لمسات من الديباجِ
وبخختِ مِن أغلى العطور زجاجةً
وسحبت فوق الشعر مُشط العاجِ
لو كنتِ ثوبا للحرير مطرّزا
لرفعتُ قبّعتي لدى النسّاجِ
ماذا تركتِ لكي نغضّ عيوننا
أو نكتم البركان في الأوداجِ؟

من أين جئت بكلّ هذا الإفترا
وبقدّك المتمايلِ المغناجِ ؟
قولي لماذا يا جميلةَ وجهها
تتجاوزين الحدّ في إحراجي
أوليس يكفي ما ملكتِ طبيعةً
حتّى تضيفي لمسةَ (المِكْياجِ) ؟

ولعلّها لأوّل مرة تسمع من رجل ثناء على جمالها ..وقد ظهر على محياها الابتهاج ، ونبت في قلبها جناحان يضربان قفص أضلاعها مرفرفين ..وسألته :
ومن أنت أيها الجريء؟
فأجاب:
أنا يا سموّكِ شاعرٌ في شاطئٍ
أعطي دروسَ الرملِ للأمواجِ

كي لا تدمّرَ حين ترمي نفسها
ما يصنع الأطفال من أبراجِ
وأعلّمُ المدّ الرقيقَ طريقةً
أحلى لإيقاظ الغريق الناجي

وازدادت بسمتها الآسرة اتساعا ،هي الثلاثينية جميلة التبسّم، فلقد أحالها جمالُ كلامه على جمالِها، وهكذا هو شأن النساء ، يعجبهن الكلام الجميل لأنه يذكرُ جمالَهنّ أو يعترف به أو يرسمه بالحروف..فهنّ بغرورهن لا بكلام المادح أسعد..ولعل عطشها الطويل للغزل قد دعاها إلى أن تستزيد ، فهمست بين الحياء ومغالبة الخجل،تقول:

زدني فإني بالكلام أموتُ
لكأنّ قولَك في دمي كبريتُ

وانفض غبارَ القلبِ، رَبّتْ فوقهُ
فالقلبُ يضبط نبضَه التربيتُ
أين الرجال ليسمعوا ، وليأخذوا
عنك الكلامَ الحلوَ يا عفريتُ ؟
ما لا يقال لدى النساءِ مُحبّبٌ
وأشدّ ما يرغبنه المسكوتُ
أعجبتني جدا، كلامكَ ساحرٌ
وسكوت غيركَ أسودٌ ممقوتُ
والآن يمكن أن أحسّ أنوثتي
وكأنها متفجّر موقوتُ
شكرا لأنكَ قد أعدتَ عواطفي
وجبرتَ قلبي أيها الخرّيتُ
أنا دون شِعركَ وردةٌ منسيةٌ
لا رُحتُ يا ملِك الهوى، لا حِيتُ

عندها استدار الساعر إلى جمع من رجال الحيّ ،قد أدهشتهم جرأته في التغزّل بسيدة قومها،كما أدهشهم ما رأوه منها من السرور بكلام الساعر،مما لم يكونوا يتوقعونه من امرأة بمكانتها ، ليوصيهم بأن يقولوا للنساء ما يذوّبهنّ، لأنّ مفتاح قلب المرأة ومفتاح عالمها،الكلمة الجميلة :

قولوا لهنّ ، لكي يعشنَ، تغزّلوا
بعيونهنَّ ، (وإن وصفتمْ فاعدلوا)
بعض الكلامِ على الجراحِ يزيلُها
والبعض يجرحُ من أصابَ ، ويقتلُ
والورد يفقد بالسكوت غرورَهُ
وإذا تعرّض للإهانة يذبلُ

فإذا رأيتم في الطريق جميلةً
فتراجفوا وتلعثموا وتزلزلوا
ولتضربوا جبهاتكم ، ولتضغطوا
أضراسكم، مُطّوا الشفاه وحوقلوا
فالغيد يعجبهنّ مَن في قلبهِ
ضعفٌ،ومَن يشكو ولا يتحمّلُ

هذا ،وسرت كلمات الشاعر في القبيلة مسرى شهر آذار ، فنبت في القلوب ربيع جميل غيّر أحوالها..

obeikandl.com

الحلقة الثانية والعشرون

في الطريق إلى هذا الحيّ من قبيلة بني عذرة،كان الساعر يستحضر جميل بثينة وبثيناه،وهذا العددَ الهائل من رجال قتلهم العشق وأودت بهم الصبابات..

هذه إذن مضارب هذا البطن من هذه القبيلة العربية الأسطورة التي عُرفت بالحب والغزل العفيف الذي أطلق عليه الحب والغزل العذري،حتى قال أحد شيوخها: "نحن من قوم إذا أحبّوا ماتوا." فقالت جارية سمعته: عُذريٌّ ورب الكعبة.

ولرجال بني عذرة عذرهم في الجنون ، فهم ينظرون إلى أعين تذهب بالعقول ، وإلى جمال يفلق الصخور،وقد قيل لأعرابي من العذريين: "ما

بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث - أي تذوب - كما ينماث الملح في الماء؟ ألا تجلدون؟ قال: إنا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها.

ورغم أنه لم يمضِ على وصول الشاعر إلى هذا الحي سوى لحظات ، فقد ازدادت حال قلبه سوء،فأناخ ناقته في ساحة بين الخيام ، وأقبل على الناس ينشد، وقد تجمهر حوله الرجال والصبيان،وأطلت النساء من كُوات الخيام:

يا حيَّ (عُذرةَ) ..قِبلةِ العشاقِ
ومعلّمي فنّ الجنون الراقي
أسيادَ (موت الحبّ)،منذُ (بثينةٍ)
من كلّ مجروح الحشا مشتاقِ
أنتم أئمتنا الكبار، وقولكمْ
فينا (وبَعد الشرع) كالميثاقِ

أنا قد أتيتُ لحيّكمْ متوجّعا
هل من طبيبٍ ماهرٍ أو راقِ؟
ضيّعتُ عمري في القبائل عاشقا
متغزّلا بالكحل والأحداقِ
لكنني - واللّه يشهدُ- مؤمنٌ
ما ذقتُ يوما ما يصبّ الساقي
والآن أشعرُ أنّ قلبي متعبٌ
وأحسُّ بالإجهادِ والإرهاقِ
أفلا ترون شفايفي مزرقةً
والأرضَ ملّتني من الإطراقِ؟
ولذا قصدتكمُو ،أريد طريقةً
أُشفى بها مِن جمريَ الحرّاقِ
مما علمتم ، علّموا تلميذكمْ
إن لم يكنْ فضلا ، فللإشفاقِ

وصرخ شيخ القبيلة مستنفرا يقول :

ماذا بهِ هذا الفتى يستعطفُ ؟
ما ضُرّه؟يبدو ضعيفا، يرجفُ؟
نادوا الحكيمَ لكي يراه ،فربّما
للّه، يفعل ما استطاع ويُسعفُ
همست فتاةٌ من وراء خبائها:
((داءُ الفتى داء المحب، وأحلفُ
بالعين يظهر باليا كعباءةٍ
في قلبه جرحٌ كبيرٌ ينزفُ
وأكادُ أسمع نبضه في رسغهِ
إن لم يجد طبّا فقد يتوقّفُ))

وعاد الطبيب بعد الفحص ليهمس للساعر:

لا بأسَ يا ولَدي ، طهورٌ ، لا تخفْ
ففقطْ أصابكَ بالهوى بعضُ التلفْ
اِصفرَّ وجهكَ، والعيون تغيّرتْ
والقلب بدّل نبضهُ، والحلق جفْ
شريان قلبكَ فيه ألف صبيةٍ
يشددنهُ صفا، وخلف الصفّ صفْ

وظنّ شيخ القبيلة أن عينا أصابت الساعر، فقال للطبيب:

أأصابتِ المسكين عينٌ،قل لنا
صوتُ الفتى متكسّرٌ، والوزن خفْ
وإذا تحمّله المسنّد واقفا
فقد التوازنَ، مال يُمسكُ، وارتجفْ

وأجاب الطبيب ، بأن الذي أصاب الساعر ليس عينا واحدة حاسدة ، بل هما عينان لوزيتان..

بل أعينٌ - يا شيخنا- لوزيةٌ
لو كانَ صاحبنا صريحا لاعترفْ
فهو الذي يا شيخُ يعرف سرّهُ
جدا ويعرف قبلَ ذلك ما اقترفْ

وقد وجدها الساعر فرصة ليعترف للقوم ومثلهم يعذرُ مثله ، ففي تاريخهم من أمثاله كثيرون..وقال :

أنا قد تعبتُ ، تعبتُ من حَمل الهوى
ومِن ارتحالِ الليلِ في الآفاقِ

مِن جرّ ظلي خلف وهمٍ صبيةٍ
والبحث في الأحياء، والأسواقِ
مِن ضعف قلبي ، لا يقاومُ نظرةً
تبّا لهُ ، تَبّيْنِ، من خفّاقِ
ما دحرجتهُ على الصخور سفيهةٌ
وجريئةٌ مجنونةُ الأمآقِ
فعلا تعبتُ من اللواتي في دمي
أو في قصيداتي، وفي أوراقي
مِن كلّ مَن يوما سَكَنّ بأضلعي
ما أكثرَ (الهندات) في أعماقي
ممن رسمتُ عيونهنّ بأحرفي
ونقشنَ أبياتي على الأطواقِ
فخذوا حياتي كلّها لصبيةٍ
منكمْ ، مقابلَ عشبةِ الترياقِ

وابتسم الطبيب لهذا العرض،من رجل داؤه الصبايا ويريد أن تكون صبية دواءه، بينما تبادل رجال القبيلة النظرات مستغربين ، ليضيف الساعر:

ولئن أبيتم، بات ذلك واضحا
أنّ القبيلة قررتْ إزهاقي
هل سوف تفرحُ - إن هلكتُ- نساؤكمْ
ورأيننني ملقى على الأعناقِ ؟
باللّه يا شيخ القبيلة داوني
وعلى مغيث المتعبينَ ،الباقي

obeikandl.com

الحلقة الثالثة والعشرون

بينما غادر الساعر حيّ بني عذرة متمايلا على ناقته ، تدفعه أشواقه إلى (مروج الياسمين) التي لم يعد يفصله عنها غير أيام قلائل ، كانت هناك صبيّة من جمالها تقول للشمس (أشرقي أو أشرقُ بدَلك) ، تجلس على حافة سريرها المخمليّ تفكّر في الحلم الذي منع عنها النوم لبقية الليل ، حلم الطفل الصغير الذي لا تعرف بالضبط أيّ ريح ساقته إلى أحلامها تلك الليلة ..الطفل الذي ليس غير هذا الساعر الذي ربما استشعرت روحها روحه لقربه من ديارها..

جلستْ على طرَفِ السرير الفاخر
تبكي على الحظّ التعيس العاثر

نحو اليسار ، حُليّها مرميةٌ
وإلى يمين التختِ بعض معاطر
في حِجرها كانت تنامُ وسادةٌ
صفراءُ تحلو في عيون الناظر
وعلى الجفون ملامحٌ أرَقيةٌ
هي لم تغَمّض جفنها في الظاهر
قالت تدلّك قلبها بيمينها
فيرنّ بالتدليك زوجُ أساور:
((أنا قد حلُمتُ به ، فهيّج مهجتي
تهييجَ نيرانٍ لماءِ فاتر
قد كنتُ أحسبُ أنّ قلبي ميّتٌ
وعواطفي معدومةٌ ومشاعري

هو لم يكن في ما ([14]) مضى في واردي
هو لم يمرّ للحظة في خاطري
عجبا.. بحلم واحد في ليلةٍ
كسر الحواجزَ..؟ يا له من ساحر
كيف استطاعَ بلحظة إحياء ما
قد مات ، أو ملءَ الفؤادِ الشاغر
قد كان طفلا ، حين جئت إلى هنا
طفلا شقيّا ، قولهُ كالشاعر

صباحا ، والصحراء تنشر على حبال النهار مفارش الليل وأسراره وأخبار أحلام صباياها، كانت (قدسى) تسير نحو النبع حاملة جرتها ، تقصّر

[14] - قال ابن السرَّاج (ت 316هـ) في كتاب الخط (ص130): «قال النَّحويون: إذا كانت (ما) اسمًا؛ فينبغي أن تفصل عن الحروف والأدوات...»، وقال ابن درستويه (ت 347هـ) في كتاب الكتاب (ص51-52): «فإن وقعت (ما) بعد هذه الحروف بمعنى الَّذي؛ لم يجزْ وصلها.

الخطـو اسـتكمالا لحـديثها عـن حلمهـا لصـديقتها (حُبّى) التي لم يكن ذكاؤها ليُقعدها عن فهم هذا الجنون الذي تلبّس بقدسى التـي لـم تعـرف عنهـا غير العزوف عـن ثرثـرات الصـبايا وأحـاديثهن عـن أحلامهن وقلوبهن وفرسانهن..وكان علـى قدسـى على درب النبع أن تقول لتبرّد نار قلبها ..

ضمّت إليها جرةً للماءِ
لتبرّدَ النيران في الأحشاءِ
في الدرب نحو النبعِ، فرصتها التي
تنجو بها من سلطة الآباءِ
قالت لصاحبة لها : ((فتصوّري
طفلا يسهّرُ أعينَ الحسناءِ
طفلا صغيرا ، لم يزلْ في أعيني
متعثرا بعباءة صفراءِ

لازال يعجز عن رباطِ حذائهِ
وكتابة الكلماتِ في الإملاءِ
لو من زمان زوّجوني ، سنّهُ
مِن سنّ مَن (لو كانَ) مِن أبنائي
طفلا يجنّنُ في المنامِ عواطفي
ويبعثر الكثبان في صحرائي
طفلا يقص أظافري بجنونهِ
ويغيّر الأشكال في حنّائي
طفلا بذاكرتي ، شقيّا ، ماكرا
قد زارني كالجنّ في الظلماءِ
طفلا تسلّل للخباء ، و(باسني)
وأثار فوضى الحبّ في أشيائي
أوصيكِ إن لاحظتِ بعض تغيّري
كالنقص في وزني، وكالإعياءِ

لا تحملي همّا ، ولا تتضجّري
في صحبتي من كثرة الأخطاءِ
وإذا رأيت النار تأكلُ أضلعي
أرجوك لا تجري إلى إطفائي
فالنار للمحروق أوّل بعثهِ
وكما سمعتِ بقصة العنقاءِ))
ضحكت صديقتها ، وقالت : (هكذا
هو موسمُ الإزهار في حوّاءِ
بالهمس يبدأ ، والتشوّقِ في المسا
والدمع، والحمى، وبالإغماءِ
اللّه يسترنا.. قضيتِ بحينا
عشرينَ مثل القطة العمياءِ
لم تعشقي ، لم تشعري ، لم تحلمي
لم تهمسي يوما بحرف (الحاء)

سبحان من يحيي الرميم بقول كنْ

ويهزّ قلب الصخرة الصماءِ).

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الرابعة والعشرون

عسعس الليلُ على الساعر وهو يمخر عباب الرمل بناقته ، وهو ذا صبح صحراويّ آخر يتنفّس على الشاعر وهو يضع رحاله في هذا الحيّ الذي تتوسد خيامه جبلا هو من أروع ما رأت عيناه ، ونا وجمالا ونقشا ..إنه جبل النقوش ..وما من شاعر أو عاشق أو فارس عربيّ مرّ من هنا يوما ، عبر تاريخ طويل موغل في القدم ، إلا ودوّن على صخور هذا الجبل بصمة حرف أو نقش..ذهب الكثيرون لكنّ النقوش باقية ..

لم يكن الساعر يعلم عن أمر هذا الجبل شيئا،وحين سأل أحدَ كبار الحيّ أجابه :

(جبلُ النقوش)..وصخرةُ القدماءِ
مستودَعُ الأسرار والأسماءِ
وعليهِ حبّ الراحلينَ وحزنُهمْ
وجنونهمْ في هذه الصحراءِ
كنزٌ من القصص الجميلة في الهوى
وروائعِ الفرسان والشعراءِ
للعاشقين به دموعٌ لم تزلْ
حرّى ، وأبياتٌ على حسناءِ
فهنا لقيسٍ أعينٌ مرسومةٌ
لغزالةٍ بدويّةٍ حوراءِ
وهنا لليلى بالرموز رسالةٌ
محفورة في صخرة صمّاءِ
مثل الطلاسمِ،لا تفكّ حروفها
أبدا، ولا صادٌ لها من حاءِ

obeikandl.com

خافتْ قبيلتها ، فدسّتْ سرّها
لحبيبها بالرمز في الإملاءِ
وهنا حادث للنبيّ معنعنٌ
يبدو كبدر النصف في الظلماءِ
وهنا لـ(عروةَ) أحرفٌ و(الشنفرى)
ولغيرهم من قاطعي الغبراءِ
وهنا لعذرةَ مَن تفتّتَ قلبهُ
مِن كلّ مقروح الحشا بكّاءِ
وهنا سطور للرعاةِ كثيرةٌ
مملوءةٌ في النحو بالأخطاءِ
ذكروا بها من يعشقون من النّسا
أو واصفين الرعي في الأنحاءِ
وهنا يدٌ أو (خمسةٌ) شِركيةٌ
ذهبَ الزمانُ بعينها الزرقاءِ

خلقٌ كشَعر الرأس ممن قد مضى
أو عابر مازال في الأحياءِ
فاتركْ هنا أسرار حبّكَ يا فتى
بُحْ بالذي خبّأتَ في الأحشاءِ
فالذكرياتُ إذا تقادم عهدها
تعطي الكثيرَ لقيمة الأشياءِ

وتقدّم الفتى الساعر من الصخرة تدور عيناه بين الأسماء والحروف والرموز وبقايا لمسات فيها من الدموع ما بقيَت بقاياه ..وبيد ترتجف اقترب ليكتبَ ، بينما أشاح مرافقه بوجهه احتراما لسره ولحاله،وحفرَ:

كتبوا ، ونكتبُ ، والحياة كتابُ
ذُبنا كما في حبّهم قد ذابوا

مازال هذا الحبّ يشوينا كما
يوما شواهمْ، لم نَتُبْ، ما تابوا
مازال أهل الطبّ يجهل جلّهم
سرّ الهوى، أوما هي الأسبابُ
هو عضةٌ في القلبِ ، أفضلُ شرحها:
(قلبٌ طريٌّ كالعجينِ ونابُ)
يا من سيقرأُ في الحجارة عضّتي
مهما تناءت بيننا الأحقابُ
مَن قال مِن أبناء حوّا إنه
لمْ يهوَ فهو بقولهِ كذّابُ
لكنّ من أبناء آدمَ عاشقٌ
يبقى يحبُّ، وعاشقٌ هرّابُ
والحُبّ مبدؤه وأوّلُ دربهِ
نبضٌ خفيفٌ اِسمه الإعجابُ

وبقدر كأس المرء يُسقى،بعضُهم
ماتوا عليه ، وبعضهم قد تابوا
فانظر لنفسك ، لا تكنْ مثلي أنا
أنا مِن أناسٍ في الهوى قد شابوا
واختر نزولكَ باكرا عن ظهرهِ
حتى إذا لم ينزل الركّابُ

متدحرجين منحدرين من سفح جبل النقوش ، مرّ الساعر ومرافقه على شيخ طاعن في السن يجلس في ظلّ شجرة سدر ، فسلّما ، ليستوقفهما وليتأمّل الساعر قائلا :

أنا لا أظنّكَ عابثا..حاشاكَا
باحت بسرّكَ في الهوى عيناكا

وأنا كبير، لا أقومُ، كما ترى
لكنّ عندي ربّما فتواكا
وأظنّ أنكَ مغرمٌ بصبيةٍ
دستَ الدروب لأجلها أشواكا
وبحسب رأيي أنت قيسٌ آخرٌ
قد جننتكَ بحسنها ليلاكَ
وهي التي مرتْ بحيّي مرةً
مِن خُمْس قرنٍ، طفلةً إذ ذاكا
إن كنت ترحل في القبائل باحثا
عنها،لتخبرها.. فما أوفاكَ

وتسمّر الساعر في أرضه ، وقد أذهله ما قاله الشيخ ، ولعلّه أراد الاستزادة مما عنده ، فجلس ركبتاه إلى ركبتيه ، وقال حدّثني لا أطفأ اللّه لك بصرا ولا أحزن لك قلبا..

obeikandl.com

الحلقة الخامسة والعشرون

وروى له الشيخ قصة تلك الفتاة التي مرت بـه مـع أمها إلى حيّ أخوالها بعد وفاة والدها..وحين سـأله الساعر عن صفتها ، قال :

رأيي بها :(سبحان من سوّاها)
أنا منذ ذاك الحين لا أنساها
رغم الصبا ، فيها جمال ساحرٌ
لا فيه (مثلَ) ، ويرفض (الأشباها)
دخلتْ عليَّ ، فقلتُ أمسكُ دهشتي:
((اللّهُ.. هذي البنت ما أحلاها))
شَعرٌ عنيفٌ جاهليٌّ واثقٌ
وضفائرٌ يلهو بها كتْفاها

أقراطها لغتانِ نصف فصيحةٍ
لمْ يقتصدْ في النحو مَن أملاها
والحاجبانِ يُزلزلانِ بهزةٍ
لكنّ أخطر ما بها عيناها
فإذا مشتْ جرّت حدائق بابلٍ
وتعثّرتْ في حُسنها رجلاها)) ([15])

ولعلّ زوجة الشيخ قد سمعت ما دار بين بعلها والساعر ، ولعلها قد أدركت صدق هذا الفتى الذي تدحرجه الرياح نحو حبيبته ، فأرادت أن تريحه من أسفاره لأجل وهم ، وقد بلغها منذ أيام أنّ قدسى قد خُطبت لرجل من أعيان أبناء خؤولتها ، فخرجت من خباء لها قريب ، لتقول:

[15] - الأبيات من قصيدة بعنوان (خطيرة) للشاعر.

obeikandl.com

خُطبتْ .. لها شهرٌ.. كما قد قالوا
لشريف قومٍ عندَهُ أموالُ
هي لم تعد في الأمر تملك نفسها
ولها بـ (ديرة) أمّها أخوالُ
فارجع لحيّك وانَسَها بصبية
أخرى ، فقد أودى بك الترحالُ
ودَواء أنثى للمحبّ بأختها
(وردٌ على جرحٍ) ، ويصفو البالُ
والمرء يبني بيته لو كارها
بركام ما قد خلّفَ الزلزالُ

ومـــا إن ســـمع الســـاعر ذاك ، حتـــى تحمّـــل متاعه،وركب ناقته وتمايل إلى غير وجهة ممتقعا متعبا وهو يردد متلمظا وقد جفّ حلقه من هول النبإ :

صدقَ الذي قد قال لي : (لا يوجدُ
أبدا لمن فقدَ الأحبّةَ مقصِدُ
كل الدروب أمامه مقطوعةٌ
والضوءُ في عينيهِ ليلٌ أسودُ)
من قد يلوم إذن غريبا متعبا
يبكي على الأيامِ أو يتنهدُ ؟
هو ليس يعرف أين يذهبُ..نصفُهُ
قصَدَ الجنوبَ، ونصفه متردّدُ
ما عندهُ في الحزنِ من يشكو له
أو عنده في الهمّ من قد يسندُ
وله وبالتجريب حظّ راقدُ
أحلامهُ غيميةٌ تتبدّدُ
إن مدّ كفا نحوها وأرادها
كالظبي تهرب في الفلاة وتشرُدُ

يمشي على مشط الأصابع نحوها
حذرا كصيّاد يقوم ويقعدُ
يمشي إليها خطوةً، فإذا رأى
منها انتباها نحوه، يتجمّدُ
كم قد تكسّر في القفار لأجلها
وهو المريضُ على الدوام ، المجهَدُ
يا دار قدسى ، هل صحيح أنها(...)؟
سمعي يصدّقه، وقلبي يجحدُ
يا دارها فلتخبريني بالذي
يطفي الحرائق داخلي أو يُبردُ
أولم تحسّ بنا التي قد أفسدتْ
ما عندنا - مهما نأتْ - لا يَفسُدُ
أوليس تدري حينَ هزت رأسها
بـ (نعمْ) وختّمها الشريف السيّدُ

أنّا فقدنا روحنا، يا ويلها
والروحُ أغلى – ويلها- ما يُفقدُ
أترى التي جارت علينا بعدنا
ستحسّ فعلا بالسرور وتسعَدُ ؟

وأكلته الصحراء نائيا، لا يظهر منه للشيخ وزوجته إلا كالنقطة ..ولعله لازال رغم اختلاط الجهات عليه، يسير جنوبا، يوجّهه قلبٌ محروق يودّ أن يبترد ولو بشمّ نسمة لها في حيّها..

obeikandl.com

الحلقة السادسة والعشرون

كما يعلو الزيت الماء ..علت قلب الساعر بقع حزن رماديّ، ما فيه من الفأل غير ما في الرمادي من البياض.. وقد أدركته على الطريق قافلة،فاستأنس بها ، وحاذاه بعضهم على جِمالهم ،فقال وسمع ، وشكا واستعبرَ..

ولعلّ بعضهم قد أحسّ بما يخفيه الساعر في إظهاره من سبب حزنه وانكساره ، فسأله :

أهو جرح أنثى؟ فأجابه الساعر متذمرا:

طبعُ التَّمَسْكُنِ في النِّسا غلّابُ
ويقال عن (صِدْقِ) النِّسا (كذّابُ)
فإذا بكينَ لديكَ، أبشرْ، إنما
يَدْهَنَّ لحمكَ، ثمّ يأتي النّابُ

ولهنّ في فنّ الغوايةِ قصةٌ
وأقلّها القمصان والأبوابُ [16]
وبذاك حدّثني الثقاتُ روايةً
مَن قد نَجَوا بجلودهم أو تابوا

ولعلّ الساعر قد انتبه إلى وجود هوادج بالقرب،فاستدركَ مبديا عذره لمن فيها من صبايا:

وأنا صريحٌ ، فاعذروني ، إنني
ممنْ بكيمياءِ النّسا قد شابوا
لا تسألوني من أكونُ ، أنا... أنا
و(أغسطسٌ) هو دون شرحٍ (آبُ)
تتداخل الأشياء بين تجاربي
الشِّعرُ، و الطعناتُ،والمحرابُ

[16] - إشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع زوجة عصير مصر..

obeikandl.com

لا تعجبوا ، هذا المسافرُ نصفُهُ
كالشّافعيّ ،ونصفه زريابُ
والفأس كانتْ في البداية خَوخةً
في غابة، أودى بها حطّابُ

ولعل القوم قد ازدادوا ريبة من حرص الساعر على إخفاء هويته ، ومطالبته لهم بأن لا يسألوه من هو ، فقال أحدهم ممازحا :
لعلك قيس ليلى، أو طيفه الذي يروي عابرو الصحراء أنهم لطالما صادفوه في القفار .
فأجابهم بعد تنهيدة بعمق أعمق ما في الوجود من الآبار :

obeikandl.com

مِن جرح ليلى ، كلنا (قيسونا) ([17])

نجري، ونَتْبَعُ شيخَنا المجنونا

ماذا ستربحُ مَن تبيع حبيبها

لتراهُ ملقى في الثرى مطعونا ؟

وإذا التقتهُ وقد تمزّق ثوبُهُ

وتشعّثتْ خصْلاته ، مسكينا

يجري ويطلب في الصحارى طيفها

سنتين ، عشر سنينَ ،أوعشرينَا

أترى ستشفق، أو تمدّ يمينها

تعطيهِ ماءً، لو يقول : (اسقونا)؟

قالت: (سينساني ، ويبرأ جرحهُ)

أهل الهوى العذريّ لا ينسونا

هي قد نمتْ زيتونة في قلبهِ

[17] - قيسون جمع قيس ، كزيدون لزيد، ومن ذلك قول صاحب (الآجرومية) في باب مرفوعات الأسماء : (قام زيد،... وقام الزيدان ،... وقام الزيدون)

أترى سينسى الغارسُ الزيتونا؟ ([18])

هانت عليها في الهوى أيامُهُ

صارت بحجمٍ قلامةٍ أو دونا

يا ويح مَن دفنتْ هدايا حبّها

أو عطّشتْ من بعدهِ النسرينا

باللّه كيف القلب طاوعها وقد

صبّت على أشيائه البنزينا ؟

ستعيش تذكرُ صوته وعيونهُ

وتحسه في قلبها مدفونا

وإذا دعا داع بعودة أمسها

لتفي لقيسٍ، أمّنت : (آمينا)

[18] - لمحمود درويش رحمه اللّه من قصيدته (عن الصمود) :

(لو يذكرُ الزيتون غارسهُ لصار الزيت دمعا)

obeikandl.com

قال الساعر ذلك ،ثم استدار إلى حادي القوم ،فتى مليح الوجه فصيح ، ليستنشده :

بانت سعادٌ، أخلفت ميعادي
كسعاد كعبٍ، هنّ كالمعتادِ
يجرينَ خلفكَ في الغواية مدةً
إن همتَ ،(والشعراء يتْ...)([19]) في... وادِ
أنا كنتُ في حبّي بسيطا ساذجا
لم أستفد من حكمة الأجدادِ
قالوا: (الذي يهوى ويعطي قلبهُ
كممتّن الأسواط للجلّادِ)

[19] - من قوله تعالى في سورة الشعراء (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) (سورة الشعراء)

فارفع بهذا الشطر صوتكَ ، غنّهِ

فلربّما داويتنا يا حادِ

وعلى ذلك اللحن البديع ، تمايلت القافلة جنوبا ..جنوبا ..جنوبا..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة السابعة والعشرون

تعاقب على القافلة أبيضان وأسودان ، نهاران وليلان ، تضع رحالها ، ثم تعود لشدها، وهو ذا ثالث يوم لها ، وقد أَلِفت الساعر وألفها ..
في هذا الصباح الصحراوي من ثالث يوم ،والساعر على ناقته ، سمع رنين أساور من هودج على جمل يحاذيه ، والتفت فإذا بوجه مشرق جميل لصبية ، يطل ببعضه من فتحة الهودج ليقول :

انظرْ إلينا لحظةً أرجوكا
إنا نشيرُ بعيننا ، ندعوكا
ردّ التحيةَ، لو بكفّكَ ، وابتسمْ
لا فضّ يا (حلم الصبايا) فوكا

وانظر إلينا ، ربما تنسى بنا
مَن بَعد كل الحبّ قد باعوكا
صعبٌ على الحسّاس (مثلك) أن يرى
دمهُ بسيف حبيبهِ مسفوكا

وبين الحزن والاندهاش لجرأة هذه الصبية،ابتسم الساعر خفيفا، حتى لا يكاد يُظهر ، دون أن يقول شيئا ، لتضيف هي:

إن كنت ترغبُ في الحريق فعندنا
أو كنت ترغب في اللظى ، نشويكا
أو كنت تعشق في الحبيبةِ خمشها
جرّبْ أظافرنا، فقد نكفيكا
أو كنتَ تهوى في العيونِ أذاهما
أبشِرْ فقد قابلتَ من يؤذيكَ

أو كنت عطشان الفؤادِ ، فقل لنا
بإشارةٍ أو غمزةٍ نسقيكَا
جرح النساء دواؤه من نفسهِ
أنثى تبيعكَ، غيرها تنسيكا
خذنا دواءً،واطمئنّ لطبّنا
فبإذن ربكَ، ربُّنا يشفيكا

كان يفكّر في قول عجوز (جبل النقوش) التي نصحته بأن يداوي جرح امرأة بزهرة امرأة أخرى ،إذ بالنساء تُنسى النساء حسب رأيها،ودون أن يلتفت عن الأفق البعيد الذي كان يتطلع إليه ويسمّر فيه عينيه،قال :

يا ليتني ..لكنني ، لا أقدِرُ
هي نور عيني ، دونها لا أبصرُ

عيناكِ ذابلتان ، خوفي منهما
وجميلتان، وتعجبان ، وأكثرُ
وكلامكِ المجنونُ قطعة سكّرٍ
عسلٌ مصفّى من شفاهك يقطرُ
وجمالك البدويّ ينفض مجلسا
في قلبي المجروح ، يجلسُ،يُبهرُ
وصريحة جدا ، طريقكِ واضحٌ
وجريئة جدا ،كما أتصوّرُ
وأحسّ فيك بجاذبية كوكبٍ
كالأرض ، تجذبني إليك ، وأكبرُ
وتذوّبينَ الصخر، يا من عندها
رمشٌ يدمّر من يراهُ ويأسرُ
ولأنت من نوعٍ خطير نادرٍ
صعب بأن ينسى ، ويبقى يُذكرُ

obeikandi.com

فكأنه في القلب ينقشُ رسمهُ
خوف التناسي بالغياب، ويحفرُ

لكنها من نوع لا يزيده الصد إلا إصرارا .. لذلك لبست لإقناعه لبوس التلميذة الساذجة والأستاذة العارفة البارعة ، وقلّبته بين خوفه ورجائه ،قائلة:

جرّبْ، فقد يا خائفا لا تندمُ
ودع التردّدَ..إنه لا يحسِمُ
(مَن خاف يسلمُ؟) ، لا أظنّ، قناعتي:
(من خاف في أمر الهوى لا يسلمُ)
ممّ التخوّفُ؟ مِن خروجكَ خاسرا
مِن قصر مملكة التي لا ترحمُ ؟
مخلوعُ مُلْكٍ أنتَ ، تاجكَ عندها
سيكون مِلكَ الغير، هل تستسلمُ؟

ولأنتَ أعلمُ بانجذابك نحونا
وأنا كذلكَ – رغم سنّي- أعلمُ
قد جئتُ بابكَ في الهوى تلميذةً
وعلى يديكَ أريدُ لو أتعلّمُ
ولقد سمعتُ بأنّ عَندكَ مذهبٌ ([20])
في الحبّ، ينفعُ من يحبّ ويُغرَمُ
سأكونَ أحسنَ مَن كتبتَ بلوحها
مِن متن علمكَ في البنات ، وأقسمُ
وقّعْ على أوراق حبي ، سيّدي
ومُنى عيوني، حبّذا لو تَبْصمُ
فأنا -أعوذ به إلهي مِن (أنا)-
سأريكَ ما أبدا به لا تحلمُ

[20] - العند هنا ليس بمعنى (لديك) ولكن بمعنى العناد ، إذ أنّ ثلاثية مآخذ متابعي الساعر عليه،غروره وعناده وسرعة تأثره بالجمال..

أُنسيكَ ما فعلته تلك، بنظرةٍ
أنسيكَ نفسكَ كلّها، هل تفهمُ ؟
وأعيدُ بدءَ هواكَ من عصري أنا
بعدي أنا ، لا أوّلٌ لا أقدمُ
سترى بعينكَ كيفَ تصبحُ بالهوى
شخصا جديدا،هادئا، يتبسمُ
ستجيء تشكرني كثيرا ، إذ ترى
عيناكَ ما يَسْطيعُ حُسني المجرمُ

ولعلّ كلامها قد وقع بعد حسنها من قلب الساعر موقعا ، أماله إلى جهتها .. فهل تراه يداوي بها جرح التي طعنته ؟
وكان هودج فوق جمل يميل بصبية عشرينية تذوّب قلب شاعر نبضة نبضة، بينما القافلة تغرق

هـذا الضـحى فـي السـراب البعيـد ، حتـى لا تكـاد تظهر إلا سرابا..

هامش:

1- العند هنا لـيس بمعنـى (لـديك) ولكـن بمعنـى العنـاد ، إذ أنّ ثلاثيـة مآخـذ متـابعي السـاعر عليه،غروره وعناده وسرعة تأثره بالجمال..

obeikandl.com

الحلقة الثامنة والعشرون

اقتربَت القافلة من حي (مروج الياسمين) ، حيّ قدسي ..ولم يعد بينها وبينه سوى مسيرةِ يوم إلى المساء ، ومن لهفة الساعر وشوقه بدا له أنه لو دقّق النظر في البعيد البعيد لرأى - أو كاد- مضارب القوم ..

كان يغمض عينه يتنفس بعمق كأنه يملأ صدره برائحة عطرها ، فيحس بقلبه يرفرف في نياطه كثوب على حبل غسيل ..تهزه ريح يختلط فيها نسيم الأمل بصرصر الحزن..وكذلك كان الساعر،بين شوق إلى دار قدسي، وخشية ..متأرجحا بين أمله وألمه..

وكان مما يقرّب منه بعيدها ، هذه العير القادمة من حي قدسي ، والتي تقترب متمايلة

كقوارب..وكلما اقتربت من قافلة الشاعر ،كلما زاد نبض قلبه ..

اقتربت القافلة القادة من حي (مروج الياسمين) حتى غدا غناء نسائها مسموعا للساعر ومرافقيه ..ولم يعد هناك شك في أنّ الموكب موكب عروس ، يظهره في مقدمته هودجها تحيطه هوادج صويحباتها ، ويتقدمه الفرسان ، على عادة هذه الأحياء في ذلك..

كان المساء يحيل الصحراء حلية صفراء جذابة ..بينما كان منظر موكب العروس يشد على قلب الساعر بقبضة مارد ، حتى إن أنفاسه لتكاد تنقطع..وقد مال إلى أنّها هي ، قدساه ، فأنشأ يقول :

هذي (حياتي) بينكم فتمهّلوا
ابقَوْا ولو يوما لأجلي وارحلوا
أو قصّروا الخطوات عند مروركمْ
ولتمشِ (في مثل القيود) الأرجلُ
والخيل تزدادُ انتشاءً عندما
تمشي يرقّصها الدلالُ، وتحجِلُ
مرّوا على مهلٍ عليّ ، وأحسنوا
سوءُ المرور على المواجع يقتلُ
فلعلّ ريحَ الطيب من أثوابها
تأتي فينفتحُ الفؤادُ المقفلُ
ولعلّ عيني تلتقي بعيونها
فألومها ، فلقد تغض وتخجلُ
ولعلها بالشوق تصبح مهرةً
تتذكر الوعد القديم وتصهلُ

ولعلّ فتحة هودجٍ تبدي لنا
طرفا كحيلا فوق خدّ يَهمِلُ
ولعلّ رنة فضة في معصمٍ
عمدا تنبّهنا لما قد نجهلُ
ولعلّ أجمل أصبع بخضابهِ
نحوي يشيرُ،للحظتين، وينزلُ
لتقول في همساتها لصديقةٍ:
(هذاك محبوبي القديم الأولُ)
صدري يضيقُ، بما أرى وضلوعهُ
مملوءةٌ نارا ،وقلبي فلفلُ
فأنا كناقف حنظل من لوعتي
كم في الوداعِ المرّ أبكى الحنظلُ

obeikandl.com

ولعلّ تلك الصبية الجريئة التي كم حاولت استمالة قلب الساعر ، قد أدركت من تغيّر لونه ، أنه مهموم بسبب موكب العرس ، فقالت وقد رقت لحاله :

أهي التي (...)؟..لكَ - يا حزينُ- اللّهُ
ما أصعب التفريقَ، ما أقساهُ
هذا – وربّكَ- موقفٌ متفرّدٌ
مهما يطول العمرُ، لن أنساهُ
حتى عدوّي رغم حقدي نحوهُ
لا أرتجيه لهُ، ولا أرضاهُ

وهزّ الساعر رأسه بالإيجاب ، مضيفا، وقد اصفرّ وجهه وازداد تنهيده:

هذي التي عبَرت هناكَ الآنا
هيَ مَنْ طويتُ لأجلها الأكوانا
هذي التي عشنا برغم غيابها
نهوى ولم تكُ مثلنا تهوانا
هذي التي صبّتْ لنا، وهي التي
ذقنا مرارة كأسها ألوانا
هذي التي أهديتُ ريحاني لها
فرمتْ لنا في وجهنا الريحانا
أخشى عليها مِن سيوف رموشها
إن أغمضت في نومها إن حانا
ولشدة الولهِ الكبير برمشها
أخشى عليها كحلها أحيانا
أخشى نسيم الصيف يجرح أنفها
ذاك الصغيرَ الشامخ الفتانا

obeikandl.com

وأخاف بردَ (شباطَ) إن لم تنتقبْ
فأثارَ فوق خدودها الرمّانا
قدّمت قلبي في يديّ لها ، لكيْ
تذرَ الغرور، فزادها طغيانا
فتصوّري أني مرضت لأجلها
لكنّها جارت على ذكرانا
قلبي لفاتنتي، وقلب حبيبتي
لسوايَ لان، ولي أنا ما لانا
قلبان، قلبي ساخن، وقليبها
مثل الصقيع ، وهكذا قلبانا

كانت قافلة موكب العروس قد تقاطعت مع القافلة التي فيها الساعر ، وبدا له حقيقة أو من خياله أنّ يدا بحنائها تظهر من خلال فتحة في

الهــودج لتوســع لعــين مــن بــداخل الهــودج مَطَلا..وكان ما سيكون..

obeikandl.com

الحلقة التاسعة والعشرون

في نقطة تقاطع القافلتين ..تعالت الأيدي ملوّحة مصاحبة لأصوات تعالت بالسلام .. بينما كانت عينا الساعر مسمرتين في هودج تزينه قطع ملونة من الغزْل ونتف الصوف ..
كانت أنفاسه محبوسة لالتقاط أي حركة أو صوت...
لكنّ رياح الهودج جرت بغير ما تشتهيه سفن نفسه ..وهاهو الهودج يتجاوز نقطة التقاطع مخلفا الساعر وراءه دون أن تظهر منه كفّ بحنائها أو معصم في أساوره أو كحل في رمش..
وقد أطلق الساعر تنهيدة حين انقطع حبل آماله،وأحسّ بخيبة تملأ مرارتُها حلقَه.. فأنشأ يقول:

حتى السلامُ إشارةً لا يوجدُ
حتى ولا منديلَ ترفعه يدُ
قلبي كبدرٍ غارق في حزنهِ
من حوله سُحُب الشتا تتلبّدُ
فتحيله غيما كثيفا مثلها
بالماء يقطرُ فيّ أو يتبدّدُ
وأنا أحسّ بأنّ هذي لحظة
فيها تموت حبيبة أو تولدُ
والقلبُ في علم المشايخ عندنا
إن لم يمُتْ من طعنةٍ يتجدّدُ

ورثت مرافقته المشاكسة في القافلة لحاله،فقالت وهي لا تعرف هل ترثي الساعر وتتعاطف معه ،أو ترثي قلبها الذي تبحثه له في صدر الساعر عن متسع ولا تكاد تجد أمام تعلقه بوهم قدسى :

مالي أراكَ محطّما تتنهّدُ
والصدرُ بالأنفاس يعلو، ينزلُ ؟
وعلى محياكَ المعنّى غيمةٌ
ألوانه من تحتها تتبدّلُ
فكأنّ وجهكَ سيّدي ليمونةٌ
وكأنّ صدركَ فوق نار مِرجلُ
أوَهكذا فِعلُ الهوى بأناسهِ ؟
تبّا وما أقسى الذي قد يَفعلُ
الآن أدركتُ الذي قد قيل مِن
أنّ الهوى إن لم يُعالجْ يَقتلُ
عذرا فأنتَ بحالة يرثى لها
وأنا أزيد الطين بلّا.. أسألُ

ودون أن يلتفت إليها رد:

ماذا سأفعل بعدها يا ناسُ ؟
ستشيب منها لحيتي والراسُ
ألنا الفراقُ، وما تَخلّفَ بعدها
منها بنا، ولغيرنا الأعراسُ ؟
كيف الوصول وقد تناءت دارها
والحيّ حول خبائها الحرّاسُ ؟
لو كان هذا نزوةً لكتمتهُ
لكنه جوف الحشا إحساسُ
وأنا أحسّ زوابعا في داخلي
وبجمر قلبي تنفخُ الأنفاسُ
بعض المحبّينَ الذين حظوظهم
مثلي ،لهم من كلّ حُلمٍ ياسُ

obeikandl.com

مساء وقد أسدل الليل جفنه على الصحراء ،وأطلّت نجوم السماء من نوافذها كصبايا ، كانت قافلة الساعر قد حطت رحالها للراحة والمبيت ..ولم يكن بين محطّ الرحال هذا وبين حيّ قدسى (مروج الياسمين) إلا مسير ساعة ، لذلك لم تكن عيون الساعر في هذا الليل تتحوّل عن نيران الحي التي تشعل نيران قلبه ..

ولم يعد به من نية لدخول الحيّ إلا لِما قد يجده فيه من آثار لقدسى ..شعر لها في مشط في الثرى ، مرود كحل قديم قرب خيمة ، وردة كانت تسقيها قرب خيمتها ..والدتها، رائحة عطر لها لازالت متشبثة بحبل خيمة أو بذراع جرة..ثوب لم يجفّ فخلّفته على حبل غسيل، أثر قدم على رمل..

ليلا ، استند الساعر إلى رحله بينما راحت عيناه تنتقلان بين نيران حي قدسى، وشبابيك صبايا السماء المتلألئات ، وتحرك لسانه بما يتحرك به قلبه :

خوفي أنا يا دارَ (قُدسى) من غدِ
خوف الذي تُبكيه برقة ثهمدِ
لا غير ما تركت لنا من بعدها
تلكَ التي قد أخلفتْ بالموعدِ
سأمرّ بين خيامها لأشمّها
في ناقةٍ، في أمّها، في مَسندِ
ولكي تلامسَ في بقاياها يدي
يدَها، أمرّر فوق جرّتها يدي
وأدور أبحث عن خيوط عباءةٍ
علِقتْ بمسمارٍ، ومِروَد إثمِدِ

عن مشطِ عاجٍ فيه شعراتٌ لها
أو فحمةٍ قد لامست في موقدِ
هي ظبية طاردتُها عمْرا ويا
للحظ ، حين بلغتها لم أصطدِ
وإذا دخلتُ الحيّ وهي بعيدةٌ
أيجوز ذلكَ للحبيب المفرَدِ؟
هل لي بفقه (الشافعيّ) (رُخيصةٌ)
أو في (الموطّإ) ، أو بـ (مسند أحمدِ) ؟

وهـدأت حركـة القافلـة ، كمـا هـدأت حركـة حـيّ قدسى، وانطفأت سُرُجه وفوانيسه.. بينمـا ازدادت ثرثرات نجوم الليل من خلال شبابيك الظلام فـي السماء..في انتظار غدٍ..

obeikandl.com

الحلقة الثلاثون

صباحا وللصحراء صباحها الآسر، دخل الساعر حيّ قدسى متلمّسا آثارها ، وبقاياها ..ومن خيمة اندفعت نحو صبية رفعت ضغط دمه بجمالها،لتسأله : ألست الذي..؟ ويتأملها مندهشا،يريد أن يقول ويتلعثم فلا يقول .. :

هل أنتِ (قُد....) ؟ ماذا ؟ إذن..أواهُ
أنت الـ..؟ محالٌ..كيف؟ يا اللّهُ
هل أنت أنتِ ؟ أم التي في خاطري
أخرى ؟ وقد تتداخل الأشباهُ
بل..أنت هيَّ، وفي عيونكِ (مُشكلٌ)
لو غبتُ عنك العمرَ لا أنساهُ

هـي إذن قدسـى ؟أم أنـه فـي حلـم ؟ أم أن جنيـة تشبهها تراءت لـه لتخفـف عنـه بعـض مـا بـه مـن شوق ؟ وللجنّ علـى (إخـوان قـيس) شـفقة وقلـوب حارة تحنّ وترحم..

لكـنّ الصـبية لـم تمهـل السـاعر لتقـول وقـد استخفتها دهشتها وتدافعت البسمات في ثغرها:

أنت الصبيُّ الشاعر (الشيطانُ)
ذاك المشاكسُ، ذلكَ الولهانُ
مَن كان يُخجلني بجرأة عينهِ
وتذوب من نظراته الأجفانُ
هاقد كبرتَ وصرتَ أحلى فارسٍ
ولديكَ سمتٌ آسر فتّانُ
لازلتَ تقتلكَ العيون وكحلُها
وتشبُّ فيكَ بنظرة نيرانُ ؟

أم تبتَ عنها ،واسترحت من الهوى
أم لم تتب ، لكنه الكتمانُ ؟
والمرء يترك حينَ يكبرُ- ملزَما-
في حبّهِ ما يفعل الصبيانُ

ورد عليها وهو يقلّب عينيه في وجهها ، غير مصدّق:

أنا ما كبرتُ ، أتكبرُ الأشعارُ ؟
فليطمئنّ الكحل والأشفارُ
أيشيخُ بالسنواتِ بدرٌ في السما
أيتوب عن ألحانه قيثارُ؟
هي عادةٌ بي، من طبيعة خِلقتي
والمرءُ في المكتوبِ لا يختارُ

obeikandl.com

ثم همس لها بقدر ما يُسمعها دون غيرها :

وأظنّ أنكِ تشعرينَ بأنني
نارٌ ..بربك هل تتوب النارُ ؟
لو كنتِ وحدكِ في الحضور،لقلتُ ما
تنشقّ حين أقوله الأحجارُ

ثم أعلى صوته بقدر ما يسمعه الجميع:

والكلّ يعرفُ كم أحبّكِ، كلهمْ
أنا ما لديّ بداخلي أسرارُ
أهوى ،وأقسمُ، فاسمعي يا أمها
حبّي لها متوحّشٌ ، إعصارُ
ويزيدُ بالسنواتِ عنفا، كلما
أمّلتُ يهدأُ، زاد بي الإصرارُ

وأنا المقيّدُ خلفه بحبالهِ

أجري إليها ، والهوى جرّارُ

ولذا أتيت لحيّكم كسحابةٍ

دون السحاب، تسوقني الأقدارُ

وروى الساعر لقدسى ما كان من وقع خبـر زواجهـا عليه ، وتحلّق به القوم رجـالا ونسـاء ، يسـتغربون قصـته وتـدمع عيـون كثيـر مـنهم لوفائـه..وقـد أخبرتــه قدســى أنّ أمــر توجهــه إلــى حيهــا قــد انتشر،فما كان من أمـر راغـب فيهـا متعجـرف مـن أبنـاء خؤولتهـا إلا أن نشـر هـذا الخبـر كـذبا ليعيـد الساعر من حيث أتى وليصـده عـن المجـيء، وهـو الذي دبر أمر موكب العرس ظنـا منـه أنـه سـيثني الساعر عن دخول حي (مروج الياسمين)..

زاد اجتماع النـاس علـى السـاعر، وقـد سـمع شـيخ القبيلـة وهـو الخـال الأكبـر لقدسـى بـالأمر، فجـاء تصحبه أمّ قدسى ، وجاء عاشقها المتعجـرف الـذي دبّر مكيدة إبعـاد السـاعر حـين سـمع بخبـره ، ومـا كان من أمر عقلاء القبيلـة وحكمائهـا إلا أن تركـوا الخيار لقدسى ، بينما همسـت لهـا أمهـا تشـدّ مـن أزرها وقد رأت ارتباكها :

لا ترجفي..وتماسكي.. واختاري
يا بؤبؤ العينين لا تحتاري
قد جاء من أقصى الفيافي عاشقا
ماذا لديك الآن من أعذار ؟
صلّي على طه النبيّ وسلّمي
وتعوّذي بالواحد الجبّار

وتكلّمي ، قولي ، فعندي لهفةٌ
وأنا على الأعصاب..فوق النار
لأرى الذي قد شدّ خيطك يا ابنتي
من دون كلّ الناس في مسمار

ازداد نبض قلبِ الصبية الفاتنة التي لم ترَ عين الشاعر في جمالها امرأةً، و قد رفعت صوتها بين الخجل وواجب الصدع، لتقول:

ما بينَ بينَ ، أنا هنا ما بين بينْ
هذا ابن خالي ، بينما هذاكَ عَينْ
أختارُ كي ترتاح أمّي أهلَها
أم من له دينٌ لديَّ وأيّ دينْ ؟

أختارُ من قد جاء يطلب ودّنا
بعد الغيابِ ، وهزّني من نظرتينْ
أختارُهُ وهو الذي منذ الصبا
بين الرموش، وأين منه الغير أينْ ؟

ضج الحي بالزغردات ، وكانت أولى المزغـردات أمّ قدسى ، ولعلها قد ارتاحت إلى أن نخلتها الصغيرة سترجع إلى تربتها في حي السـاعر، بينمـا همـس الشاعر لقدسى بعينيه ، كأنه يقول : ظننتك بعـتِ هوايَ..فأجابته على الملإ:

أأنا أبيعُكَ ، هل أبيع هوايَ ؟
بلواكَ (إذ أصبحتَ في)، بلوايَ
قلبي يضخّكَ فيَّ، جفني ظلهُ
من حاجبيكَ ، وأنت لي عينايَ

ولأنتَ عندي - لا أبالغ- في الحشا
وحشاكَ – يسلمُ الحشا- مأوايَ
في الحبّ مذهبنا – وربّكَ- واحدٌ
فتواكَ (دون تمعّني) فتوايَ
فإذا تنفّستَ الهواء شهقتني
وإذا زفرت ملأت لي رئتايَ
وإذا اشتكيتَ شعرتُ آهك داخلي
كالجمر تشعل داخلي شكوايَ
وإذا بسطتَ يديكَ تمسح وردةً
راحت تمسّح شعرها كفّايَ
وإذا مشيتَ إليَّ كنتُكَ ماشيا
ومشتْ إليَّ تريدني رجلايَ
أنا ظلك الثاني، وآخرُكَ الصدى
هل كان يُرجعكَ الصدى لولايَ ؟

obeikandl.com

كيف استمعتَ لما يقال، وبيننا
عهدٌ لكلّ العمر يا مولايَ ؟

وتحلّق المهنئون حول الساعر الذي هوى على ركبتيه مادا ذراعيه إلى السماء شاكرا ربه،بينما راحت قدسى تمسح دموع فرح ترقرقت في عيون ناقة الساعر التي رافقته في رحلته الشاقة .. وابتسمَت الصحراء في ذاك الضحى لوفاء قلبين جميلين..
بينما ارتفعت أصوات صبايا بالغناء ، وقد هملت عيونهنّ تأثرا :

(ولأنها كانتْ صبية حلمهِ
أو أنها الحبّ البريء الأولُ

حلف اليمين بأن يردّ غيابها
أو سوف يبقى هكذا يتجوّلُ)

تمّ بحمد اللّه تعالى وجلّ..
وكان الانتهاء منه: ضحى الخميس 17 نيسان – أبريل 2014 م
بينما كانت بدايته يوم الثلاثاء 18 شباط – فبراير 2014 م

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

مدخل 05
الحلقة الأولى 09
الحلقة الثانية 13
الحلقة الثالثة 19
الحلقة الرابعة 27
الحلقة الخامسة 33
الحلقة السادسة 41
الحلقة السابعة 51
الحلقة الثامنة 57
الحلقة التاسعة 65
الحلقة العاشرة 73
الحلقة الحادية عشرة 83
الحلقة الثانية عشرة 93
الحلقة الثالثة عشرة 101

obeikandl.com

الحلقة الرابعة عشرة 107
الحلقة الخامسة عشرة 115
الحلقة السادسة عشرة 123
الحلقة السابعة عشرة..... 131
الحلقة الثامنة عشرة 141
الحلقة التاسعة عشرة 147
الحلقة العشرون 155
الحلقة الحادية والعشرون 161
الحلقة الثانية والعشرون 169
الحلقة الثالثة والعشرون..... 177
الحلقة الرابعة والعشرون 185
الحلقة الخامسة والعشرون 193
الحلقة السادسة والعشرون 199
الحلقة السابعة والعشرون 207
الحلقة الثامنة والعشرون..... 215
الحلقة التاسعة والعشرون 223

obeikandl.com

الحلقة الثلاثون 231
الفهرس 243

obeikandl.com